الأهل النوري

نعمة الشهيد محمد، وعمرو الفقيه والمصين

عبد الله القرقري
الأثنا عشر

الأملاك النبوية

خليفة الإسلام وأمهين، عدمة الفقراء والمحتاجين، وصحة الأولياء والصالحين

تأليف

عبد الله الدق

ولالقائل

زيتى
الطَّبِعَةُ الْرَّابِعَةُ
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

جَعْفُوقُ الطَّبعِ مَحْفُوظَة
الأعمال النحوية
هذا الرجل
الشيخ الإمام القدوة، الحافظ الزاهد، العابد الفقيه، المجتهد
ال(SPAN style="font-family: Times New Roman, serif; text-align: justify;"
الإمام، أحمد دوسل، حسن الإسلام، حسن механизм
(الإمام الذهبي)
الإمام الحافظ الأوَّد، القدوة، شيخ الإسلام، علم الأولياء
صاحب التصانيف النافعة.
(الإمام الذهبي)
الشيخ الإمام، العلامة الحافظ، الفقيه النبيل، محرر المذهب
ومهذبه، وضابطه ومرته، أحد العباد والعلماء الزهاد. كان على
جانب كثير من العلم والعمل والزهد والتفش، والاقتصاد في
العيش والصبر على خشونته، والتورع الذي لم يبلغنا عن أحد في
زمانه ولا قبله بدهر طويل.
(الإمام ابن كثير)
شيخ الإسلام، علم الأئمة الأعلام، أوحد العلماء العاملين
الأولياء السالحين، عين المحققين، وملأ الفقهاء والمحدثين،
وشيخ الحفاظ وإمام أرباب الضبط المتقنين.
(العلامة محمد بن علاء الصديقي)
العالم العامل، المحقق الفاضل، الولي الكبير، السيد الشهير، ذو
المحاسن العديدة والسيرة الحميدة، والتصانيف المفيدة، الذي فاق
جميع الأقران، وسارت بمحاسنه الركن، واشتهرت فضائله في
سائر البلدان.

(الإمام اليافعي اليمني)
المقدّمة

الحمد الله رب العالمين. وأفضل الصلاة والسلام على أشرف النبيين محمد النبي العربي الأمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

دخل أعرابي رث الهيئة بالي العباءة على معاوية، فاقتحمته عينه، فعرف الأعرابي ذلك في وجه معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين وإن العباءة لا تكلمك، ولكن يكلمك من فيها، فأدناه فإذا به مدرة فصاحبة في القول وبلاغة، فجعله من خاصته.

وأروع من ذلك أن الملك الجبار الظاهر بيرس - الذي أذهل الصليبيين والتتار بأسه وهول حروبه - أحضر لديه علماء عصره ليوثقوا فتوية (1) زينها له بعض المتتفعين ممن يبيعون دينهم بعرض من الدنيا، فوقعوا بعضهم خوفاً وامتنع بعضهم، فنزل به غضب الظاهر فهلك. ثم قال الملك الظاهر: هل بقي من أحد؟ قالوا: نعم الشيخ محى الدين النووي، فطلبه فحضر، فإذا شيخ هزيل الجسم، مرقع الثياب، يضع عمة صغيرة، فاستصغره واستخف به.

(1) ستأتي قصة هذه الفتوى في "أمره بالمعروف ونهي عن المنكر".

هكذا كان حال النووي عليه رحمة الله، إذا رآه الرائي ظنه شيخاً من فقراء سكان القرى فلا يأبه له، ولا يخيل إليه أنه شيء يذكر، فإذا سمعه يدرس أو يقرر أو يحدث فغر فاه وحمل بعينيه عجباً من هذه الأسماك أن تتكشف عن جوهر نفيس وعبقرية نادرة في العلم والزهد والقوى. ولا عجب فالتراب مكمن الذهب، ولكن الناس في كل زمان ومكان يغزهم حسن الهيئة، وجمال الهندام، فإذا رأوا من هذه صفته وقوته وعظموه قبل أن يعرفوا ما وراء هذه البزة، وقد يكون فيها نخاع ضامر، وفكر بائر، وقلب حائر.

ترنون بلغوا المجد أن ثيابكم يلوح عليكم حسنها وبصيصها وليست العلى دراعه ورداؤه ولا جبة موضيّة وقميصها
ويعجب المرء لأمر النووي، قدم من نوى يطلب العلم في دمشق ولا غرابة في ذلك، فكثير من طلاب العلم يفعل ذلك في القديم والحديث، ولكن العجب أن يُقبل هذا الفتى الحوراني الفقير فيزحم بمنكبه الضعيف طلاب العلم فسبقهم ويتقدم عليهم، ولا يلبث أن يزحم من لقبوا بالعلماء حتى يدعهم وراءه يكدرون للحاق به ثم يقصرون، ثم يزحم كبار العلماء في عصره ومنهم بعض شيوخه فيحرز منهم قصب السبق. وهذه الأجيال من بعد هذا التاريخ، شاهدان على ذلك فما من أحد في بلاد الإسلام من خاص وعام لا يسمع بالنووي ولا يذكره بأعلى نعوت المدح والثناء، أما من عاصروه من كبار العلماء فقد اختبؤوا في بطون كتب التراجم، فلا يعرفون إلا ببحث الخاصة عنهم. كل ذلك ولم يعش النووي إلا نحواً من خمس وأربعين سنة، وترك من الكتب النافعة المحققة المتقنة التي صنفها ما لوقسم على سنين حياته لكان نصيب اليوم الواحد كراستين أو أكثر، وحسبك أن تنقل عن كتاب من كتب النووي قوله في فقه أو حديث، أو لغة أو ذكر لتكون حجته بالغة ومعرفتك مدمعة بالدليل.

وقد أجمع على الوثوق به وبنقله علماء المذاهب، وأحبوه، ولم يجدوا فيه حياته كلها - ما يلم دينه بل ما يلم ورعه، فقد كان له ورع ثمين كما قال الذهببي، أي ورع شديد، أخذ بزمام نفسه فكيفها لا عن المحرمات ولا عن الشهادات حسب، بل كفها
عن المباحات خشية أن يطبع نفسه بالمباح فتجره إلى المشتبه ثم تجره إلى الحرام!! ودافعه إلى ذلك خوفه من الله تعالى. ولقد كان يرى رحمه الله في طلب العلم وتعليمه والتأليف فيه عبادةً وذكرةً وطاعةً، إذا قصد به وجه الله. وهكذا كان النووي كلما ازداد علماً ازداد من الله قرباً، وكلما ازداد قرباً ازداد علمًا، وتحقق في قوله تعالى:

«إنما يخشي الله من عباده الذين أرسلت آلامهم».

ولقد كان النبي ﷺ يرى أجره في طلب العلم وتعليمه، قيهم العبادة وذكر، وإذا قصد به وجه الله، وكما كان يذكر من غير دب مع الله، وقد يذكر دون خشية له، وقد يجعل من الذكر لهواً فيمتع شيطانه ونفسه غافلاً عن ربه، فلا يزداد منه إلا بعداً.

وهو بيان مثلاً من عبادة النووي الصافية المخلصة البريئة من شائبة الرياء التي هي عبادة السلف. يقول محمد بن أبي الفتح الباعلي الخنفي: كنت ليلة في أواخر الليل بجامع دمشق، والشيخ - أي النووي - وافق لي صلي إلى سارية في ظلمة، وهو يردد قوله تعالى: «وفقُوهُ إنَّهم مسَّتُونَ» مراراً بحزن وخشوع، حتى
حصل عندي من ذلك شيء الله أعلم به. هذا وما ندعى أنا يمكن أن نفي النووي حقه بهذه المقدمة وهذا الكتاب، فهذا ما يعجز عنه من عاصره من العلماء، ويرحم الله تلميذه علاء الدين بن العطار إذ يقول: "وقد رأيت منه أموراً تحمل مجلدات". ومع هذا اختصر ترجمته في جزء يسير. على أنه لم يأت بعده مؤرخ للرجال إلا وأتي على ذكره وخصوصاً الإمام الذهبي شيخ التراجم والجرح والتعديل، فما من مؤلف من مؤلفاته في التراجم أو في الطبقات إلا وترجمه وأثني عليه أبلغ الشنا، وقد عرف الذهبي أنه ضنين بالثناء إلا لم يستحق وعلى قدر ما يستحق.

ومع ترجمه أيضاً بكتاب خاص به السخاوي رحمه الله، ونقل من ابن العطار كثيراً، ولكن من نسخة ناقصة. ومنهم السحيمي، والسيوطي، وسمى رسالته "المنهج السوي".

أما طريقتنا في كتابنا هذا، فقد جمعنا ترجمته من كل ما ظفرنا به من كتب التراجم، وحاولنا ترتيبها وتنسيقها، والتقديم لها والتعليق عليها، بما يناسبها، قدر ما نعرف ونستطيع. وعمدنا إلى ترجة كل علم - ما أمكننا ذلك - بما لا يتجاوز السطر الواحد باستثناء ترجة تلاميذه أو رجال السند.

وبعد: يرحم الله النووي، لم يأخذ من الدنيا بكل ما فيها من معن وشهوات إلا القليل، بل الأقل الذي به تقوم حياته في
أدنى صورها، وترك سائرها لربه، لم يدع لحظة واحدة تمر ولا يزداد فيها علماً ودينًا وثقة.
وقل جداً من قدر أن يصبر على ذلك صبره، ويسير سيره، وما عن قليل مضى في الأفق ذكره، وصار مثلًا سائراً في زهده وورعه وعلمه وذكره.

دمشق الشام 1/ جمادي الآخرة/ 1395 هـ
10/ حزيران/ 1975 م
عبد النبي الدار
عَصْرَ النَوْعَوي

عاش النووي - رحمه الله - آخر عصر الأيوبيين وكل عصر الملك الظاهر بيرس من المماليك، وتمتاز هذه الفترة بنوع من الاستقرار، ولكنها مع ذلك كانت فترة عصيبة، فقد تظاهر فيها على غزو بلاد الشام قوتنا البغي والشر والكفر: من صليبيين وتتار، ولولا أن الله هيأ من قبل نور الدين وصلاح الدين فكسرا من حدّة الصليبيين، ثم هيا بعدهما الملك الظاهر الشجاع الحاكم المقدام، فخفض من شوكة التتار والصليبيين، وأوقع الهزيمة في صفوفهما، واسترجع كثيراً من البلاد المحتلة، لولا ذلك لكانت حال بلاد الشام مفزعة.

لا جرّم لقد تمتعت بلاد الشام - وخصوصاً دمشق - بالاطمئنان الحذر، والاستقرار المتحفز، ولكنه إذا قيس إلى ما قبله - آخر عهد الأيوبيين - وإلى ما بعده في كثير من العهود، فإنه عهد ميمون مبارك، لولا بعض الهمات.

هذا مجمل للحياة السياسية في عصر النووي.

أما الناحية العلمية فإن هذا العصر والذي بعده - أعني
القرنين السابع والثامن من الهجرة - من أزهر العصور، فقد حفلا بالكثير من العلماء المتمكنين الذين تركوا من المؤلفات الناضج المفيد.

وما نحن بسبيل التحدث عن القرن الثامن، ولكن ما نحن بصدد القرن السابع، الذي عاش فيه النووي بأقل من نصف قرن ودونك بعضًا من العلماء في كثير من العلوم، فهم المرآة المعبرة عن حال العلم في هذا العصر:

منهم في علوم الدين: ابن الصلاح علم المحدثين، والرافعي: كبير فقهاء الشافعية في قزوين، وال النووي كبير فقهاء الشافعية في بلاد الشام وعلم المحدثين، وإسماعيل بن عبدالكريم المعروف: بابن المعلم، شيخ الحنفية في وقته، وعبد الرحمن بن محمد بن عساكر ابن أخي الحافظ أبي القاسم كان فقيه وقته، وعبدالكريم ابن الحركاتي خطيب دمشق، والفركاج الفزاري شيخ النووي، وهناك كثيرون غيرهم، وإنما نأتي بأمثلة.

ومنهم في علوم العربية وآدابها: ابن بعيش شارح المفصّل للزمخشري، وشيخ ابن مالك، وابن القطني وكان من مفاخر هذا القرن، وكان عالماً بعلوم جمة: من اللغة والنحو، والفقه والحديث، وعلوم القرآن والأصول، والمنطق، والنجوم والهندسة والتاريخ.

ومنهم في علوم التاريخ والتراجم: ابن العديم صاحب
تاريخ حلب، وابن خلّكان قاضي القضاة وصاحب كتاب وفيات الأعيان، ويقوت الحموي الرومي الجغرافي المؤرخ الرحالة صاحب معجم البلدان ومعجم الأدباء، وابن القطفي وقد تقدم، والعلامة أبو شامة صاحب كتاب الروضتين.

ومنهم في الهندسة: إبراهيم بن غنائم باني المدرسة الظاهرة الجوانية، وصاحب دار الهندسة نجم الدين يحيى بن البوادي، وهو عالم بالحكمة والهندسة والعدد.

ومنهم في الحكمة والطب: ابن أبي أصبعه الدمشقي الطبيب الأديب، وعبد المنعم الجلياني الملقب بحكيم الزمان علامه في الطب والكحل والأدب، وسيف الدين علي التلبي الأمدي كان أذكى أهل زمانه وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكيمية، وشمس الدين الخويني عالم بالحكمة والشرع والطب، وعبيد الدين ابن قاضي بعلبك عالم الطب.

ومنهم في التصوف: شيخ وقته، محيى الدين بن عربي الأندلسي فقد بلغ الذروة في فلسفة التصوف، وهو صاحب كتاب الفتوحات المكية والفصوص.

كل هؤلاء عاشوا في القرن الذي كان فيه النوروي. وما أتت إلا بأمثلة قليلة جداً بالنسبة لما حواه هذا العصر، وكل هؤلاء وإن وضعوا في القسم الذي شهروا به فقد شاركوا في علوم كثيرة.

١٥
والكلمة الجامعة لحال هذا العصر من ناحيته العلمية: أنه إن لم يكن عصر إبداع كعصور الاجتهاد، فهو - بجمالته وأكثر علومه - عصر نقل متزن، وتقليد واع، وجمع في تحقيق، وتحرير، وتصحيح، وتهذيب، بل أحياناً اجتهاد مقيّد حر.

ذلك لأن عصور الاجتهاد لم تدعو لمن بعدها من ساحات العلوم إلا القليل، على قاعدة: «ما ترك الأول للآخر» أو على حد قول عنترة: «هل غادر الشعراء من متردأ فعلم الحديث جمعه أثمانه، وмиزوا ضعيفه من صحيحه، ووضعوا رواته في ميزان الجرح والتعديل في القرنين الثاني والثالث، وتبعهما القرن الرابع. فما أتي القرن السابع حتى كانت أدواته مستكملة تقريباً، فالحدث في هذا العصر همه قبل كل شيء أن يصل حبه من حيث الرواية بأمامه هذا الشأن مع حفظ ما انتهى إليه مما صنفوه والتحقيق في رواته وألفاظه.

وعلم الفقه الفضل فيه للأول والأعظم مجدهد المذهب، ثم جاء تلاميذه فتفحوا وصححوا حتى كثرت الأقوال واصطررت الأدلة، فاجاء من بعدهم فوضعوا الحق في مصبه على ما انتهى إليه اجتهادهم، فلما جاء القرن السابع لم يستسلم علماؤه لنتائج من قبلهم، ولكنهم بحثوا وتحرروا، فصححوا بعضاً وضعفوا بعضاً، وكل ذلك بالدليل، ومن قرأ كتب الرافعي أو النووي يجد مثالاً رائعاً لذلك.
ولا يجوز في الفقه أن تقال الكلمة الأخيرة، فكل عصر قضاياه وأموره، فينبغي لعلماء الفقه أن يلاحظوا عصورهم بكل ما فيها، مع الرجوع إلى الأصول الثابتة من الكتاب والسنة، وقد يصدق هذا على فقهاء القرن السابع.

وعلم النحو الذي يمثله ابن مالك وأقرانه، لم يأتوا بجديد على ما كتب سيبويه والكثيرة من البصريين، إلا في أشيء قليلة مثبتة هنا وهناك لا تتجاوز كلها الصفحات القليلة. ولكنهـ رحمة اللهـ نقّح ورتب ووضّح، حتى صارت كتبه في النحو مثابة العلماء وطلاب العلم في عصره وما أتى بعده من عصور، وهكذا بقية العلوم لا تخرج عما حدثنا في صدر هذا الكلام.

وهكذا الحال في كل العلوم في هذا العصر، وما قلناه عن بعض العلوم مثال لما لم نفصل فيه خشية الإطالة.

والخلاصة: إن هذا العصر كان يعج بجميع العلوم التي عرفها أهل الإسلام، وزادوا عليها من التحقيق والتعليق والتصحيح أو التضعيف والأفهام الجديدة الشيء الكثير.

والظاهرة التي لا تخفى في علماء هذا العصر أنهم ـ إلا من شذ ـ يحرصون مع علمهم على العمل، فالتقوى رائدهم، والورع يدعو بهم، وكثر العبادة عملهم في اليوم والليلة، وكانوا حريصين على أن تكون عباداتهم على السنة، ولا يخلو أن يكون

17
هناك نفر منهم قصروا بذلك، بل إن منهم من باع دينه بعرض من الدنيا وهم قلة لا يعبأ الله بهم.

هذه خلاصة عن عصر النووي، والمقام يتسع لكتاب لا لمقدمة صغيرة في كتاب، وما نحن فيه ترجمة للنووي - رحمه الله - لا لعصر النووي.
أسرته ومولده ونشأته

نوا:

ينسب الناس إلى بلد ما ليتعرفوا به، ونسبة الإمام النووي إلى «نوا» عكس ذلك، فقد عرفت بلده به، بل صارت خالدة بخلوده ما دام في الأرض إسلام، وما دام في الأرض فقه شافعي وعلماء فما ينطق اسمه على أفواه الآلوف من علماء الفقه الشافعي وعلماء الحديث، ولا كتنيته ولقبه، وإنما تنطلق نسبته فيقولون: النووي، أو النواوي، وكان رحمه الله يكتبها بخطه: النووي. ورحم الله أبا حفص بن الوردي إذ يقول في نوا النووي:

"لقيت خيراً يانوا
فلكد نشا بـك زاهد
على عداد فضلـه
وخرسـت من ألم النوى
في العلم أخلص ما نوى
فضل الحروب على النوى
وإنوى كانت في عصر النووي قاعدة الجولان من أرض حوران من أعمال دمشق (1)، وكان ينزل بها على عادة العرب "جزام" جد

(1) تحفة الطالبين لابن العطار مصور "٣ - ٣"، ويقول ياقوت الحموي عنها:
النوكبي الأعلى، فأقام بها، ورزقه الله ذرية إلى أن صار منهم عدد كبير (1).

اسم النوكبي ونسبه:

هو أبو زكريا يحيى، ابن الشيخ الزاهد الورع ولي الله أبي يحيى شرف بن مري (2)، بن حسن، بن حسين، بن محمد، بن جمعة، بن حزام الجزامي النوكبي.

وكان هناك من يزعم أن نسبته «الجزامي» إلى حزام أبي حكيم الصحاوي، وقد صحح ذلك النوكبي نفسه، فقد ذكر- رحمه الله- أن بعض أجداده كان يزعم أنها نسبة إلى حزام أبي حكيم الصحاوي رضي الله عنه (3). قال: وهو غلط (4).

وأما لقبه فقد لقب بمحبي الدين، وكان يكره أن يلقب به

(1) ترجمة النوكبي للسخاوي (53).

(2) ضبط الزوجي في تاج العروس (مرى) بكسر الميم والقصر، وفي شرح الأربعين النووية لإبراهيم بن مرعي (مرى) بضم الميم وكسر الراء، وكثيرون يضبطونها شكلاً بضم الميم وكسر الراء المشددة.

(3) حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، صحابي قرشي، وهو ابن أخي خديجة أم المؤمنين، كان من سادات قريش في الجاهلية والإسلام، توفي سنة 54 هـ.

(4) تحفة الطالبين لابن العطار.
تواضعاً لله تعالى، أو أن الدين حي ثابت دائم غير متاح إلى من يحييه، حتى يكون حجة قائمة على من أهمله أو نبذه، قال اللمسي (1): وصح عنه أنه قال: لا أجعل في حل من لقبني محيي الدين (2).

والد النووي:

لا نعلم من حياة أجداده شيئاً، ويفهم أن حياتهم كانت معتادة، ولو كان لهم من علم أو جاه أو ولاية لما أغلب ذكرهم المترجمون.

أما أبوه شرف بن مري: فقد كان دكانياً بنوي (3) (أي له دكان بيع فيها ويشتري) ووصفه تلميذ النووي علاء الدين بن العطار (4) بقوله: الشيخ الزاهد الورع ولي الله (5)، ويقول الذهبي وكان شيخاً ماركاً (6). ولما مات سنة 685 هـ صلّي عليه صلاة

(1) هو أحمد بن فرح بن أحمد الإشبيلى المحدث، وهو صاحب منظومة غرامي صحيح في المصطلح، توفي سنة 719.
(2) ترجمة النووي للسخاوي (4).
(3) المرجع السابق.
(4) هو علي بن إبراهيم، كان أبوه عطاراً وجده طبيباً، صحب النووي ولازميه، واشتق عليه، حتى كان يقال له مختصر النووي، توفي سنة 724 هـ.
(5) تحفة الطالبين مصور (2 - 6).
(6) ترجمة النووي للسخاوي (6).
الغائب (١)، وهذا يدل على شهرة صلاحه. وواضح أنه عاش بعد وفاة ابنه تسع سنين وقد جاوز السبعين.

مولده:

في العشر الأول من الحرم، وقيل في العشر الأول من السنة ١٣٢ هـ ولد بنو الإمام النووي (٢).

نشأته:

عاش النووي في كنف أبيه ورعايته، وكان أبوه في دنياه مستور الحال، مباركًا له في رزقه، فنشأ النووي في ستر وخير وبقي يتعيش في الدكان لأبيه مدة كما يقول الحافظ الذهبي (٣).

وكان الله قد أعدَّه منذ طفولته وصباها لحمل عبء الوراثة النبوية في العلم والورع والصلاح، وهذا ما أشار إليه بعض الصالحين الكبار إذ قال: إنه حين ولد كتب من الصادقين (٤).

وثبت ذلك أنه لما بلغ من العمر سبع سنين، كان نائماً ليلة السابع والعشرين من رمضان بجانب والده، فانتبه نحو نصف الليل. يقول والده: وأيقظني، وقال: يا أبتي، ما هذا الضوء

(١) المرجع السابق.
(٢) تحفة الطالبين مصور (٣ / أ).
(٣) المرجع السابق.
(٤) السخاوي (٣٤).
الذي قد ملأ الدار؟ فاستيقظ أهله جميعاً فلم نر كتبا شيئاً، قال والده: فعرفت أنها ليلة القدر(١).
ولما بلغ عشر سنين(٢) جعله أبوه في دكان، فجعل لا يشتغل بالبيع والشراء عن القرآن(٣). واتفق أنه في سنة نيف وأربعين وستمائة من مقرية نوي الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي المشهور بولايته فرأى النووي وهو ابن عشر سنين، والصبيان يكرهونه على اللعب معهم، وهو يهرب منهم، ويكلي لإكراههم، ويقرأ القرآن في تلك الحال، يقول الشيخ ياسين: فوقع في قلبي محبة، فأتيت الذي يقرئه القرآن فوصيته به، وقال له: هذا الصبي يرجى أن يكون أعلم أهل زمانه وأزهدهم، وينفع الناس به، فقال لي: أمنجو أنت؟ فقلت: لا، وإنما أنطقني الله بذلك، فذكر ذلك لوالده، فحرص عليه في أن ختم القرآن، وقد ناهز الاحتلام(٤).
وهكذا كانت فراسة هذا الشيخ المراكشي أنفع للمسلمين قاطبة من كل عمل صالح له، إذ كان بسبيه وسعبه ظهور عالم زاهد نقي، قل أن يسمح الزمان بムله إلا في قرون متطاولة، وما

(1) الطبقات الكبرى للسبكي «٨/٣٩٦».
(2) ترجمة النوى للمسخاوي «٤٧».
(3) تحفة الطالبين «٣/٢».
(4) المرجع السابق.
نظن أنه جاء من بعده مثله، بارك الله له في عمره القصير، وصنع منه في عصره وما بعده أعلم الناس وأزهدهم وأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر.

هذا ما عثرنا عليه من ومضات في حياة النووي في بلده قبل أن يرحل إلى دمشق. هذا وقد لبث في بلده إلى الثامنة عشرة من عمره، فبماذا كان يملأ هذه الفترة من فتوته؟

لم تجدننا الأخبار عنه بغير ما قدمنا، والظاهر أنه كان منصرفًا إلى إعانة أبيه في دكانه، ومقبلاً على التزود بالقليل من العلم عند بعض الشيوخ من أهل العلم، الذين لم تكن تخلو منهم قصبة أو قرية حينئذٍ.

٢٤
رحلته إلى دمشق وتحصيله العلم

قدومه لدمشق:

ما أجمع عليه من آرخ للنويوي وفي رأسهم تلميذة ابن العطار(1) أنه: في سنة تسع وأربعين وستمئة قدم النويوي دمشق قدم به والده أبو يحيى وعمره ثماني عشرة سنة.

وكان في دمشق محج العلماء وطلبة العلم من أقطار العالم الإسلامي، وحسب لتعلم ذلك أن تلقي نظرة على تاريخ دمشق للحافظ المؤرخ ابن عساكر، وهو أعظم تاريخ ألف لبلد ما، فقد جاوز مقداره تمانين مجلدة! ترجم فيه مؤلفه لعلماء دمشق وأدبائها وشعرائها وأمرائها ومن قصد إليها أو مر بها من هؤلاء.

وكان يرى أنه يمكن أن يستكمل عالم علمه ما لم يؤم.

(1) تجربة الطالب مصهر 3/ ب والسناوي: 5 والدارس 268/1 والبداية والنهاية 278/13. وما خالف هذا الإجماع إلا ما جاء في مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده/1 398/1 فقد ذكر: أنه قدم دمشق سنة خمسين وستمئة وله تسع وعشرون سنة، وقد يكون هذا الخطأ من سبق القلم.
إحدى عواصم العالم الإسلامي، وقمر هذه العواصم حينئذ
دمشق ليس في علوم الشريعة واللغة حسب، بل في جميع ما
عرف من علوم في تلك العصور.
وقمر، هذه العواصم حينما دمشق ليس في علوم الشريعة واللغة حسب، بل في جميع ما
عرف من علوم في تلك العصور.
وفراسة الشيخ الصالح المراقي في النووي الفتى وبدو
الناجحة عليه، واشتعال الرغبة فيه لطلب العلم، كن ذلك حدا
بأبيه أن يصطفح ولده إلى دمشق ليأخذ العلم عن كبار علمائها،
فأين كان مسكنه؟ وكيف كانت دراسته؟ وعلى أي الشيخ بدأ؟
وغير ذلك سيأتي في الفصول الآتية.

بدء اشتغاله بطلب العلم:
كان أول ما اهتم النووي به - بعد أن بلغ دمشق - أن يصل
حبله بأحد العلماء يلازمه ويقرأ عليه، ثم أن يجد له ماوَي.
ويظهر أن أول ما قصده عند دخوله دمشق جامعها الكبير،
وكذلك كانت عادة الغرباء يؤمنون قبل كل شيء المساجد، وما
تذكر دمشق في العادة إلا ويدرك معها جامعها الأكبر الأموي،
ولقي النووي أول من لقي من العلماء خطيب الجامع الأموي
وإمامه الشيخ جمال الدين عبد الكافي بن عبد الملك بن
عبدالكافي الركعي الدمشقي (1)، وما اجتمع إليه حتى عرَّفه مقصده

______________________________
(1) السخاوي 8. والشيخ جمال الدين المذكور كان فقيهاً فاضلاً، وناب
في القضاء مدة ثم ترك واقتبصرف على الخطابة بالجامع الأموي
والإمامة، توفي سنة 189 هـ.
ورغبه في طلب العلم، فأخذته وتوجهه إلى حلقة مفتى الشام تاج الدين عبد الرحمن بن إبراهيم بن ضياء الفزاري، عرف بالفركاح (1) رحمه الله، فقرأ عليه دروساً، وبقى يلازمه مدة وهذا أول شيخ للنووي.

سكنه بالرواحية:

في هذه الفترة التي أمضاها النووي عند شيخه التاج الفركاح يقرأ عليه لم يكن له موضوع يأوي إليه كما يأوي أمثاله من طلبة العلم في المدارس الكثيرة المبثوثة في دمشق، فسأل النووي شيخه التاج موضعًا يسكنه، ولكن لم يكن بيد شيخه من المدارس سوى الصارمية (2) ولا بيوت لها، فدله شيخه الفركاح على الكمال إسحاق المغربي (3) بالرواحية (4)، فتوجه إليه ولازمه.

(1) الفركاح: فقيه أهل الشام كما يقول التاج السبكي تفقه على العز بن عبد السلام، وتوفي سنة 196. وبنو الفركاح: قبيلة بالشام.

(2) هي مدرسة داخل باب الجابية قبلي القلعة في حي كان يسمى حي سيدي عمود وبانيها صارم الدين جوهر، وقد درست من زمن بعيد وأصبحت بيوتًا، وحي سيدي عمود كله أحرقه الفرنسيون أيام الثورة السورية سنة 1344، ولا يزال موضعه يقال له الحريقة في هذه الأيام.

(3) هو إسحاق بن أحمد المغربي معيد ابن الصلاح المحدث الكبير في الرواحية وتعليمها، كان من المشهورين بالعلم والصلاح، تفقه عليه خلفاني، توفي سنة 550 هـ.

(4) الرواحية: مدرسة مكانها شرقي المسجد ابن عروة الذي هو لصيق.
واستغل عليه (1)، ومنحه الشيخ في هذه المدرسة بيتاً لطيفاً، عجيب الحال (2)، فسكنه واستقر فيه، واستمر فيه حتى مات، وقال اليافعي: وسمعت من غير واحد أنه إنما اختار النزول بها - أي بالرواحية - على غيرها لحلها (3)، إذ هي من بناء بعض التجار، وكان قوته بها جراية المدرسة لا غير (4)، بل كان يتصدق منها، ثم ترك تعاطيها (5).

حجة:

بعد نحو سنتين من قدومه إلى دمشق صحبه أبوه إلى الحج يقول النووي (6): فلما كانت سنة إحدى وخمسين - أي وستمائة - حججت مع والدي، وكانت وقفة جمعة، وكان رحيلنا من أول رجب، قال: فاقمت بمدينة رسول الله ﷺ نحوًا من شهر ونصف.

الجامع الأموي من ناحية بابه الشرقي شمالي جيرون. يقول بدران: شاهدت موضع هذه المدرسة فرأيتها قد صارت داراً. انظر الحديث عنها في مسماوات بدران والدارس للنعيمي.

(1) السخاوي 88.
(2) من كلام التاج السبكي في طبقات الشافعية 8/297.
(3) مائة الجنان 4/183.
(4) تجعة الطاببين 3/أ.
(5) السخاوي 55 والجراية: خبر يوزع على الطلبة كل يوم. صرح به الذهبى في التذكرة.
(6) تجعة الطاببين 4/أ.
وقال ابن العطار أيضاً: قال لي والده رحمه الله: لما توجهنا من نوى للرحيل أخذتْ الحمى فلم تفارقه إلى يوم عرفة.

قال: لم يتأخوه قط، فلما قضينا المناسك ووصلنا إلى نوى، ونزل إلى دمشق، صب الله عليه العلم صباً، ولم يزل يشتغل بالعلم ويفتفي آثار شيخه المذكور (1) في العبادة من الصلاة، وصيام الدهر، والزهد والورع، وعدم إضاعة شيء من أوقاته إلى أن توفي رحمه الله.

وهناك (2) من قال: إنه حج مرتين وفهموا ذلك من قول الكمال الدميري، فقد قال: إنه حج مرة أخرى، ويستأنس أيضاً من قول العماد ابن كثير في تارихه أنه حج في مدة إقامته بدمشق، ولما رجعت من حجة الإسلام لاحت عليه - كما يقول الذهبي في سير النبلاء - أمارات النجابة والفهم وتزود بمدد من الله في بيته الحرام وبركات من رسول الله.

جده في طلب العلم:

حين استقر النووي في المدرسة الرواحية، واطمأنت نفسه في مسجده أقبل على طلب العلم بكل ما يعتلجه بقلب وعقله من شغف وجد واستعداد، ومن نهيم للعلم لا يسده شبع، ولقد كان

(1) المراد به الشيخ المراكشي، وقد تقدم ذكره.
(2) السخاوي 626. 
ذلك منه مضرب المثل، ومثار العجب، قال رحمه الله: وبقيت ستين(1) لم أضع جنبي إلى الأرض. (2)
ويقول الذهبي (3) : «وضرب به المثل في إكبابه على طلب العلم ليلًا ونهارًا، وهجره النوم إلا عن غلبة، وضبط أوقاته بلزوم الدرس أو الكتابة أو المطالعة أو التردد على الشيوخ». (4)
وذكر القطب اليونيني (5) أن كان لا يضيع له وقت في ليل ولا نهار إلا في وظيفة من الاشتغال بالعلم، حتى إنه في ذهابه في الطريق وياتبه، يشتغل في تكرار محفوظة، أو مطالعة، وإنه بقي على التحصيل - على هذا الوجه - ست سنوات (6).
وحكي البدر بن جماعة (7) أنه سأله عن نومه، فقال: إذا

(1) وردت ستين في الدارس، وفي سائر المصادر كما أثبتنا.
(2) الدارس 268/1.
(3) هو شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان التركاني الذهبي، محدث عصره ومؤرخه، وشيخ الجرح والتعديل، توفي سنة 748 هـ.
(4) السخاوي (7).
(5) وهو موسى بن محمد اليووني البعلبكي قطب الدين أبو الفتاح مؤرخ، توفي في دمشق سنة 726 هـ.
(6) السخاوي 711 - 712.
(7) هو قاضي القضاة محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكتاني الحموي، توفي بمصر سنة 733 هـ.

30
غلبني النوم استندت إلى الكتب لحظة وأنبتني(1). وفي مفتاح السعادة(2) كان كثير السهر مكباً على العلم والعمل.

وكيف لا يكون كذلك وليس شيء بعد الإيمان في نظر الإسلام، أفسد معنى وأعلى شأنًا من العلم، فقد ذكر لفظ العلم في القرآن أكثر من تسعين مرة في معانيها الكثيرة التي ترجع جميعها إلى معنى اليقين في أي شيء، من ذلك قوله تعالى:
«إِنَّا مَعْلَمُوهُمْ لَيَتَّلُبُونَهُ»(3) وقاله تعالى: «مَنْ يَشَاءُ يَعْلَمُ لَهُ مَهْدًى»(4) وقاله تعالى: «يَقُولُ اللّهُ لِلْأَرْضِ وَلِلْأَمْرِ»(5).

أما الأحاديث النبوية الصحيحة وأقوال الصحابة والتابعين فمستفيدة كثيرة، من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث: «وإن الملائكة لتضع أجنتها لطالب العلم رضي بما يصنع».

وفي مقدمة شرح المهدب(1) للنروي أحاديث وأقوال لكبراء

(1) السخاوي 368.
(2) 398/11.
(3) فاطر 28.
(4) الزمر 99.
(5) المجادلة 11.
(6) 12/6/1.
الصحابة في فضل العلم، من ذلك قول علي رضي الله عنه: "العالم أعظم أجرًا من الصائم القائم الغازي في سبيل الله" وقول أبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهما: "باب من العلم تعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوع، وباب من العلم تعلمه - عميل به أو لم يعمل - أحب إلينا من مائة ركعة تطوعا" وقالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: "إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال مات وهو شهيد". ويقول النووي في مقدمة شرح مسلم: "إن الاشتغال بالعلم من أفضل القراب وأجل الطاعات، وأهم أنواع الخير وآخذ العبادات، وأولى ما أنفتحت فيه نفائس الأوقات، وشمَّر في إدراكه وتمكن به أصحاب الأنفس الزكيات، وبدار إلى الاهتمام به المسارعون إلى الخيرات، وسابق إلى التحلي به مستبقو المكرمات". ويقول النووي في مقدمة شرح المهدب: (1): "والحاصل أنهم متفقون على أن الاشتغال بالعلم أفضل من الاشتغال بنوافل الصوم والصلاة والتسبيح ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن، ومن دلائله - سوى ما سبق - أن نفع العلم يعم صاحبه والمسلمين، والنوافل المذكورة مختصة به، ولأن العلم مصحح، فغيره من العبادات مفتقر إليه، ولا ينعكس، ولأن العلماء ورثة الأنبياء، ولا يوصف المتبعون بذلك، ولأن العابد تابع للعالم مقتد ب麦克لله في عبادته وغيرها، واجب عليه

(1) 37/32
طاعته ولا يتعكس، ولأن العلم تبقى فائدته وأثره بعد صاحبه، والنوافل تنقطع بموت صاحبها، ولأن العلم صفة الله تعالى، ولأن العلم فرض كفاية».

وقال إمام الحرمين (١): فرض الكفاية أفضل من فرض العين من حيث أن فاعله يسد مسد الأمة ويسقط الحرج عن الأمة، وفرض العين قاصر العين.

ثم يقول النووي: أعلم أن ما ذكرناه من الفضل في طلب العلم إنما هو في من طلبه مربداً به وجه الله تعالى لا لغرض من الدنيا، ومن أراده لغرض دنيوي كمال أو رياضة أو منصب أو جاه، أو شهرة أو استمالة الناس إليه، أو قهر المنااظرين أو نحو ذلك فهو مذموم.

هذا وقد أثر في العلم النووي رحمه الله من السنة الأولى، فقد حفظ التنبية لأبي إسحاق الشيرازي في نحو أربعة أشهر ونصف، ثم حفظ ربع العبادات من المذهب لأبي إسحاق أيضاً في باقي السنة (٢)، وعرض حفظه لكتاب التنبية على ابن رزين (٣)

(١) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، لقب بإمام الحرمين، أعلم المتاخرين من أصحاب الشافعي، توفي سنة ٤٧٨ هـ.

(٢) السخاوي «٤٥».

(٣) هو محمد بن الحسين بن رزين، قاضي القضاة بالديار المصرية، توفي سنة ٦٨٠ هـ.
في سنة خمسين وستمائة. يقول السخاوي (١): فقد قرأت بخط العز القاضي أبي عمر بن جماعة (٢): وقفت على ورقة بخط الحافظ عفيف الدين أبي السيادة المطري (٣): أنه شاهد على نسخة صاحبه الفقيه الإمام بدر الدين ابن الصائغ الديشقي الشافعي (٤) من كتاب التنبيه ما مثاله:

الحمد لله كما هو أهله، عرض عليّ الفقيه أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، من أول كتاب التنبيه في الفقه هذا وإلى آخره؛ مواضع امتحنت فيها حفظه، دلت على ذلك وآذنت بتكراره على جمعه وتحصيله، وحرصه على العلم، وفقني الله وإياه له وللعمل به، وذلك في مجلس واحد لسبع مضين من شهر ربيع الأول سنة خمسين وستمائة، أي في السنة التالية لنزوله.

(١) هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد شمس الدين السخاوي، مؤرخ حجة، توفي سنة ٩٠٢ هـ.
(٢) سبقت ترجمته ص ٢٩.
(٣) وفي الدرر الكاتمة: الطبري، وفي طبقات الشافعية المطري كما أثبتناه، وهو عبد الله بن محمد بن أحمد الطبري ثم المكي عفيف الدين بن برهان، من المحدثين، توفي بالمدينة سنة ٧٦٥ هـ.
(٤) هو محمد بن عبد الرحمن بن علي بن أبي الحسن الزمرذي المعروف بابن الصائغ، بارع في اللغة والنحو، توفي سنة ٧٧٦ هـ، ولقب في الدرر الكاتمة: شمس الدين.
كتبه محمد بن الحسين بن رزين الشافعي حامداً مسلماً مستغفرأً.

ثم إنه كان أول طلبه أيضاً يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً: درسين في الوسيط، وثالثاً في المهذب، ودرسًا في الجمع بين الصحيحين، وخامساً في صحيح مسلم، ودرسًا في اللمع لأبن جنين (1) في النحو، ودرسًا في إصلاح المنطق لابن السكيت (2) في اللغة، ودرسًا في التصرف، ودرسًا في أصول الفقه - تارة في اللمع لأبي إسحاق (3) وتارة في المنتخب للفخر الرازي (4) - ودرسًا في أسماء الرجال، ودرسًا في أصول الدين - وهو التوحيد - قال النووي: وكنت أعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل، وإيضاح عبارة، وضبط لغة، وبارك الله لي في وقتي واشتغالي، وأعانني عليه (5).

---

(1) هو عثمان بن جني أبو الفتح النحوي، من أحدث علماء النحو والتصريف، توفي سنة 392 هـ.
(2) هو يعقوب بن إسحاق أبو يوسف بن السكيت، نحوي نموذجي مشهور، توفي سنة 244 هـ.
(3) هو إبراهيم بن علي الفيروزآبادي الشيرازي مفتي الأمة وعالمها في عصره، توفي سنة 476 هـ.
(4) هو محمد بن عمر بن الحسن أوحد زمانه في المعقول والمنقول توفي سنة 626 هـ.
(5) تذكرة الحفاظ: 4/1470 والساخاوي 68.
اثنا عشر درساً يقرأها على المشايخ كل يوم شرحاً وتصحيحاً ويتعلق بها من شرح مشكل وإيضاح عبارة وضبط لغة، تحتاج كل يوم إلى أثنتي عشرة ساعة على أقل تقدير، وتحتاج إلى مراجعة ما يجب أن يراجع وحفظ ما يجب أن يحفظ - بآدنى التقدير - إلى أثنتي عشرة ساعة، فهذه أربع وعشرون ساعة، فمتي ينام? ومتى يأكل؟ ومتى يقوم بعبادته؟ ومتى يتهجد في ليله؟ ومعروف أنه سباق إلى الطعامات والعبادات؟ متى يكون هذا كله؟ وهو يحتاج إلى دراسته ومراجعته إلى أربع وعشرين ساعة في اليوم والليلة. هنا يبدو إكرام الله إياه وفضل عليه، وذلك بأن بارك الله له في وقته، فمنه القدرة على أن ينتج في يوم ما ينتج غيره في يومين، وفي سنة ما ينتج غيره في سنتين. وبهذا نفسر هذه الوئبة الهائلة التي جعلت منه في نحو عشر سنوات عالماً في درجة كبار علماء عصره، ثم جعلت منه إمام عصره، كما نفسر هذه الكثرة من مؤلفاته المتقنة الرائعة في فترة لا تتجاوز خمسة وعشرين سنة هي كل عمره في العلم تعلماً وتعليماً وتأليفاً.

36
شيوخه

ما كان يعتد بعلم عالم حتى تعرف شيوخه، لإن في الشيوخ نسب العلم والعلماء، يقول النووي في هذا الصدد: «وهذا- أي ذكر الشيوخ وسلسلتهم - من المطلوبات المهمات، والنفائف الجليلات، التي ينبغي للمتفق والفقيه معرفتها، وتقيق به جهالتها فإن شيوخه في العلم آباء في الدين، وصلة بينه وبين رب العالمين، وكيف لا يقبل جهله الأناساب(1) والوصلة بينه وبين ربه الكريم الوهاب، مع أنه مأمور بالدعاء لهم وبرهم وذكر مآثرهم والثناء عليهم وشكرهم(2).»

والم النووي رحمه الله شيوخ متعددون في كل علم اشتغل به، وخصوصاً علمي الفقه والحديث فإنهمها غاية الغايات من علمه، وبهما كان الإمام عصمه، وسنورد شيوخه في كل علم.

شيوعه في الفقه:

(1) في تهذيب الأسماء المطبوعة: جهل الإنسان، وما أثبتنا كما في السخاوي نقلًا عن تهذيب الأسماء.
(2) تهذيب الأسماء (18/1) والسخاوي (63).
تقدم في "بدء اشتغاله" أنه أول قدمته إلى دمشق لقي أول من لقي من العلماء خطيب الأموي الشيخ جمال الدين عبدالكافيف ولم يقرأ عليه شيئاً، ولكنه أخذه وتوجه به إلى حلقة مفتي الشام تأج الدين الفزاري المعروف بالفركاح (1)، فلازمه يقرأ عليه مدة، وهذا أول شيخ للنووي، ثم دلَّ الفركاح على الكمال إسحاق المغربي فلازمه، وأكثر قراءته عليه، وأكثر انتفاعه عليه (2)، وجعله النووي أول شيوخه، ويحدث عن انتفاعه بدروسه وعن تشجيعه وتقديره بقوله: وجعلت أشرح وأصحح على شيخنا الكمال إسحاق المغربي، ولازمه فأعجب بي، لما رأى من ملازمتي للاشتغال وعدم اختلاطي بالناس، وأحبني محبة شديدة، وجعلني معيد الدرس بحلقتنا لأكثر الجماعة (3).

ثم كان من شيوخه في الفقه بعد إسحاق المغربي مفتي دمشق: عبد الرحمن بن نوح، ثم عمر بن أسعد الإربلي، ثم أبو الحسن سلار بن الحسن الأربلي.

يقول النووي في معرض ذكر شيوخه في الفقه وتسليهم إلى إمام مذهبه الإمام الشافعي رضي الله عنه ثم إلى النبي (4):

1(1) تقدمت ترجمتهما في هامش الصحيفة 26 و 27.
2(2) كما يقول الأسنو (الدارس 1/25).
3(3) السخاوي 26 والدارس 1/35.
4(4) تهذيب الأسماء 15/18.

38
فأما أنا فأخذت الفقه قراءة وتصحيحًا وسماعًا وشرحًا وتعليقاً عن جماعات (1): أولهم شيخي الإمام المتفق على علمه وزهده، وورعه وكثرة عبادته، وعظم فضله وتميزه في ذلك على أشكاله: أبو إبراهيم إسحاق بن أحمد بن عثمان المغربي (2) ثم المقدسي رضي الله عنه وأرضاه، وجمع بيني وبينه وبين سائر أحبائنا في دار كرامته مع من اصفافاه.

ثم شيخنا أبو محمد عبد الرحمن بن نوح بن محمد بن إبراهيم بن موسى المقدسي (3) ثم الدمشقي، الإمام العارف الزاهد العابد الورع المتقن، مفتي دمشق في وقته رحمه الله.

ثم شيخنا أبو حفص عمر بن أسعد بن أبي غالب الربيعي الإربلي الإمام المتقن رضي الله عنه (4).

ثم شيخنا أبو الحسن سلار بن الحسن الإربلي ثم الحلبي

(1) نترجم أساتذته فقط، ولا يتسع المجال إلى ترجمة من فوقهم في هذا التسلسل.
(2) كان من المشهورين بالعلم والصلاح وقرأ عليه النووي نحو سنة إذ توفي سنة 650 هـ.
(3) كان أعرف الناس بالمذهب وأجل أصحاب ابن الصلاح توفي سنة 654 هـ.
(4) لم يزيد على ذلك في ترجمته في الطبقات الكبرى ولم يذكر وفاته ولم أجد له غيرها.
ثم الديشمي، المجمع على إمامته وجلالته وتقدمه في علم المذهب على أهل عصره بهذه النواحي رضي الله عنه(1).

وتفقه شيوخنا الثلاثة الأولون على شيخهم الإمام أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان المعروف بابن الصلاح، وتفقه هو على والده، وتفقه والده في طريقة العراقين - على أبي سعيد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن علي بن أبي عصور الموصلي، وتفقه أبو سعيد على القاضي أبي علي الفارقي، وتفقة الفارقي على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وتفقه الشيخ أبو إسحاق على القاضي أبي الطيب طاهر بن عبد الله الطبري، وتفقه أبو الطيب على أبي الحسن محمد بن علي بن سهل بن مصلح الماسرجسي، وتفقه الماسرجسي على أبي إسحاق إبراهيم ابن أحمد المروري، وتفقه أبو إسحاق على أبي العباس أحمد بن عمر بن سريج، وتفقه ابن سريج على أبي القاسم عثمان بن بشار الأنصاري، وتفقه الأنصاري على أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني، وتفقه المزني على أبي عبد الله محمد بن أدريس الشافعي رضي الله عنه. وتفقه الشافعي على جماعات: منهم أبو عبد الله مالك بن أنس إمام المدينة، ومالك على ربيعة عن أنس، وعلى نافع عن ابن عمر كلاهما عن النبي ﷺ، والشيخ الثاني.

(1) توفي سنة 760 هـ، ويقول النووي عنه أيضاً: هو إمام المذهب في عصره والمرجع إليه في حل مشكلاته.
للشافعي رحمة الله سفيان بن عبيبة عن عمرو بن دينار عن ابن عمرو وابن عباس رضي الله عنهم. والشيخ الثالث للشافعي رضي الله عنه أبو خالد مسلم بن خالد مفتى مكة وإمام أهلها وتفقه مسلم على أبي الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، وتفقه ابن جريج على أبي محمد عطاء بن أسلم أبي رباح، وتفقه عطاء على أبي العباس عبد الله بن عباس، وأخذ ابن عباس عن رسول الله ﷺ، وعن عمر بن الخطاب وعلي وزيد بن ثابت وجماعات من الصحابة رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ.

وأما طريقة أصحابنا الخراسانيين، فأخذتها عن شيوخنا المذكورين، وأخذها شيوخنا الثلاثة عن أبي عمرو عن والده عن أبي القاسم البزري الجزري، عن أبي الحسن علي بن محمد ابن علي الكيا الهراشي، عن أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله ابن يوسف بن عبد الله بن يوسف إمام الحرمين، عن والده أبي محمد عيسى بن عبد الله بن أحمد بن أحمد القفال المروزي الصغير وهو إمام طريقة خراسان، عن أبي زيد محمد ابن أحمد بن عبد الله بن محمد المروزي عن أبي إسحاق المروزي عن ابن سريج كما سبق.

وتفقه شيخنا الإمام أبو الحسن سلام على جماعات، منهم الإمام أبو بكر الماهاني، وتفقه الماهاني على ابن البزري بطريقة السابق فهذا "مختصر السلسلة".

41
يقول النووي: «ومعلوم أن كل واحد من هؤلاء أخذ عن جماعة بل جماعات، لكن أردت الاختصار، وبيان واحد من شيوخ كل واحد، وذكرت أجلهم وأشهرهم».

شيوخه في الحديث:

ستحدث عن منزلة النووي محدثاً عند حديثنا عن العلوم التي قرأها وأقرأها وبرع فيها في فصل «علوم النووي» ونقتصر هنا على ذكر شيوخه الذين سمع منهم أو تلقى عنهم.

فمن شيوخه: إبراهيم بن عيسى المرادي الأندلسي ثم المصري ثم الدمشقي (1)، يقول النووي: صحبته نحو عشر سنين، لم آر منه شيئاً يكره (2).

ومنهم: أبو إسحاق إبراهيم بن أبي حفص عمر بن مضر الواسطي، وله سمع جميع صحيح مسلم بن الحجاج، وسأتي على ذكر سنده لمسلم عن طريقشيخه المذكور (3).

ومنهم: الشيخ زين الدين أبو البقاء خالد بن يوسف بن سعد

(1) قال فيه النووي: الإمام الحافظ المتقن المحقق الضابط الزاهد الورع، الذي لم تر عيني في وقتي مثله، توفي بمصر سنة 668 هـ منطبقات 122/8.
(2) الطباقات 8/122.
(3) وصفه النووي بقوله: الشيخ الأمين العدل الراضي، كما في شرح مسلم 8/1.
النابلسي (١).

ومنهم: الرضي بن البرهان.
ومنهم: شيخ الشيوخ (٢) عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصاري الحموي الشافعي (٣).
ومنهم: زين الدين أبو العباس بن عبد الدائم المقدسي.
ومنهم: أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (٤)، يقول تلميذه ابن العطار: وهو أجل شيوخه (٥).
ومنهم: قاضي القضاة عماد الدين أبو الفضائل عبد الكريم ابن عبد الصمد بن محمد الحرستاني خطيب دمشق (٦).
ومنهم: تقي الدين أبو محمد إسماعيل بن أبي إسحاق

(١) يقول الذهبي عنه: الإمام المفيد المحدث الحافظ، ويقول: كان ذا اتقان وفهم ومعرفة وعلم، وكان ثقة متبناً، ويقول: وحدث عنه الشيخ محجي الدين النووي في جملة من حدث عنه، توفي سنة ٦٦٣ هـ. من التذكرة ١٤٤٧، وكذا الدارس (١٠٦).
(٢) كذا في التذكرة والطبقات.
(٣) وصفه في الطبقات بأنه كان من أذكياء بني آدم، وبرع في الفقه والشعر.
(٤) وحدث كثيراً، توفي سنة ٦٦٢ هـ. من الطبقات ٢٥٨/٨.
(٥) لتحفة الطالبين مصوره (٨/ب).
(٦) من كبار المحدثين، توفي سنة ٦٦٢ هـ.
إبراهيم بن أبي السير (١) التنوخي.

ومنهم: جمال الدين أبو زكريا يحيى بن أبي الفتح الصيرفي الحراني.

ومنهم: أبو الفضل محمد بن محمد بن محمد البكري الحافظ.

ومنهم: الضياء بن تمام الحنفي واسمه كما في هامش الجواهر المضية - أبو بكر محمد بن نصر الله بن عبد العزيز (١).

ومنهم: المفتي جمال الدين عبدالرحمن بن سالم بن يحيى الأنباري ثم الدمشقي الحنبل.

ومنهم: المفتي جمال الدين عبدالرحمن بن سالم بن يحيى الأنباري ثم الدمشقي الحنبل.

ومنهم: شمس الدين بن أبي عمرو، وغير هؤلاء من هذه الطبقة (٤).

شيوخه في علم الأصول:

يقول تلميذه ابن العطار (٥): قرأ - يعني علم الأصول - على

(١) وصفه الذهبي في التذكرة بأنه كبير المحدثين ومسندهم الإمام تقي الدين، وذكر وفاته أنها سنة ٦٧٢ هـ.
(٢) ووصفه في الجواهر: بأنه الإمام كبير محدث ولم يذكر وفاته.
(٣) توفي سنة ٦٧١ هـ كما في التذكرة.
(٤) استخرجنا أسماء شيوخه هؤلاء من التحفة لتمييزه ابن العطار، والتذكرة، والدار، واللطائف الكبرى، وترجمة النوري للسخاوي.
(٥) نحافة الطالبين مصورة ٧ / ب.
جماعة، أشجعهم وأجهم العلام القدّامي أبو الفتح عمر بن بنادر
ابن عمر بن علي بن محمد التفليسي الشافعي (1) رحمه الله، قرأ
عليه المتحت للإمام فخر الدين الرازي، وقطعه من كتاب
المستصفى للغزالي (2) وقرأ غيرهما من الكتب على غيره.

شيوخه في النحو واللغة:

قرأ النحو على الشيخ أحمد بن سالم المصري وغيره (3).
وقرأ على ابن مالك (4) كتاباً من تصنيفه وعلق عليه شيئاً (5).

وقرأ على الفخري المالكي: اللمع لأبن جني.

وقرأ على الشيخ أحمد بن سالم المصري المذكور: كتاب
إصلاح المنطق لابن السكيت بحثاً، وكذا كتاباً في التصريف.

(1) في الطباق الكبير: أحد العلماء المشهورين، جلس أبا عمرو بن
الصلاح واستفاد منه، وكان نافذ كلمة عند البتار فحصل للمسلمين به
خير كثير، توفي سنة 272 هـ.
(2) حجة الإسلام وفيلسوفه كبير فقهائه ومتصوفي، اسمه محمد بن
محمد بن محمد الغزالي الطوسي، توفي سنة 505 هـ.
(3) هو أبو العباس أحمد بن سالم المصري التحوي اللغوي التصريفي،
قال الذهبي: ماهر بالعربية محقق بها، توفي سنة 164 هـ.
(4) هو محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك العلامة جمال الدين أبو
عبد الله الطائي الجبالي إمام النحاة، وحافظ اللغة، توفي سنة 272 هـ.
(5) تحفة الطالبين مصورة 7 / ب.
يقول النووي: وكان لي عليه درس إما في كتاب سيبويه (1)
وإما في غيره (الشك من تلميذه ابن العطار).

(1) هو عمرو بن عثمان بن قنبرحارثي الملقب سيبويه، إمام النحاة،
توفي سنة 180 هـ وعمره اثنتان وثلاثون.
العلوم التي بكرع فيها وآثاره

النوعي الفقيه:

لم يكن النوعي فقيهاً إلا لأنه يريد التقرب إلى الله بعلم
ينفع فيه نفسه وينفع عباد الله.
والفقه عظيم القدر، جليل النفع، رفيع المنزلة، يحتمي به
الصالحون من العلماء من مخالفة الله ورسوله ومن موقف يوم
الحساب. وهو ذاته ذكر وعبادة، فمن أبي الدرداء(1) : «ما نحن
لولا كلمات الفقهاء!» . وعن عطاء(2) قال: «مجالس الذكر هي
مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع، وتصلي وتصوم،
وتنكح وتطلق، وتحج وأشباه ذلك(3) ».

ولئن مفهوم الفقه في هذه النصوص هو التخصص المذهبي

____________________

(1) أبو الدرداء هو عويم بن مالك بن قيس الصحابي الأنصاري
الخزرجي، من الحكماء الفرسان القضاة، توفي بالشام سنة 32 هـ.
(2) هو عطاء بن أسلم بن صفوان: تابعي من أجلاء الفقهاء، كان مفتي
مكة ومحدثهم، توفي سنة 114 هـ.
(3) هذه النصوص من المجموع (1/36 - 35).
إنما هو الفهم والقدرة على استنباط الأحكام الفرعية من النصوص الشرعية: الكتاب والسنة الصحيحة، ثم القياس الجلي، ثم الإجماع الحقيقي، ومن لمستطع بلوغ ذلك، وبع مذهبًا من مذاهب أهل السنة فليكن كما نقل النووي في المجموع: "قال الشيخ أبو عمرو (1): فمن وجد من الشافعية حديثاً يخالف مذهبه نظر إن كملت آلات الاجتهاد فيه مطلقًا، أو في ذلك الباب أو المسألة، كان له الاستقلال بالعمل به، وإن لم يكن وشقيقًا عليه مخالفته الحديث بعد أن بحث فلم يجد لمخالفته جوابًا شافياً، فله العمل به إن كان عمل به إمام مستقل غير شافعي، ويكون هذا عذراً له في ترك مذهب إمامه هنا" يقول النووي بعد هذا: "وهذا الذي قاله حسن متعين" (2).

وخذ مثالًا من نقده لبعض المتعصبين، يقول رحمه الله في الشيرازي (3): "شيخ الشيوخ في المذهب الشافعي: 'اعلم أن صاحب المذهب أكثر من ذكر أبي ثور، لكنه لا ينصفه فيقول:

_________________________

(1) هو أبو عمرو بن الصلاح، واسمه عثمان بن عبد الرحمن بن موسى الكردي الشهرزوري، أحد أئمة المسلمين علمًا ودينا، توفي سنة 143 هـ.
(2) المجموع 1/501.
(3) المجموع 1/115.

48
قال أبو ثور: كذا، وهو خطاً، والتزم هذه العبارة في أقواله، وربما كان قول أبي ثور أقوى دليلاً من المذهب في كثير من المسائل. وأفرط المصنف - أي الشيرازي - في استعماله هذه العبارة، حتى في عبد الله بن مسعود الصحابي رضي الله عنه، الذي محله من الفقه وأنواع العلم معروف، قد من يساوي فيه من الصحابة فضلاً عن غيرهم، لا سيما الفرائض، فحكي عنه في باب الجد والأخوة مذهب في المسألة المعروفة بمرحة ابن مسعود، ثم قال: وهذا خطأ. ولا يستعمل المصنف هذه العبارة غالباً في آحاد أصحابنا أصحاب الوجه (1) الذين لا يقاربون أبا ثور، وربما كانت أوجههم ضعيفة بل واهية. وقد أجمع نقلة العلم على جلالته أبي ثور وإمامته وبراعته في الحديث ولفقه، وحسن مصنفاته فيما مع الجلالهة والاتفاق.

وأقبح ما أورد أقوال بعض المذاهب وفيهم مذهب الشافعي فيقول: ولكن الحديث. كذا واتباع الحديث أولى، مثال ذلك في ترجيح المرجوع من مذهبه قوله (2) في قضاء الصوم عن الميت: "وللشافعي في المسألة قولان مشهوران، أشهرهما لا يصوم عنه ولا يصح عن ميت صوم أصلًا، والثاني يُستحب لوليْه أن يصوم عنه ويصح صومه عنه ويبدأ به الميت. وهذا القول هو...

(1) أي الذين لهم آراء في مسألة غير ما عليه المذهب.
(2) شرح مسلم 25/8.
الصحيح المختار الذي نعتقده، وهو الذي صحّحه محققٌ أصحابنا الجامعون بين الفقه والحديث لهذه الأحاديث الصريحة. وفي مسلم أحاديث في قضاء الصوم عن الميت، وهناك أمثلة كثيرة جداً وليس هنا موضع بسطها.

هذا وقد أخذ النووي رحمه الله الفقه الشافعي عن كبار علماء عصره، كما رأيت ذلك في شيوخه في الفقه، وفترة وجيزة حفظ الفقه وأتقنه، وعرف قواعده وأصوله، وفهم ميخبته وألغازه، وبرع في معرفة أدنته، حتى عرف بذلك بين العامة والخاصة ولم يمض وقت كبير حتى كان علّم عصره في حفظه للمذهب، وإتقانه لأقوال علمائه، وأعرفهم بعلم الخلاف، وأحقهم بأن يكون: محرر المذهب. انتشر في الأفاق ذكره، وعلق الطلبة والعلماء بتأليفه فانتفعوا بها وما يزال الناس ينتفعون بكتبه ويوثرونها، وهكذا طرفاً مما قاله العلماء في فقهه.

يقول الأسنووي (١) في طباقته (٢): وهو: أي النووي: محرر المذهب، ومهذبه، ومنقحه، ومثبته، مرتبط، سار في الأفایق ذكره، وعلا في العالم محله وقرده. ويقول ابن كثير (٣) عنه: شيخ

(١) هو عبد الرحيم بن الحسن بن علي الأسنووي الشافعي فقيه أصولي من علماء العربية، توفي سنة ٧٧٢ هـ.
(٢) ص ٤٧٦ من الجزء الثاني.
(٣) هو إسحائيل بن عمر بن كثير، حافظ مؤرخ، فقيه مفسر، توفي سنة ٧٧٤ هـ.
المذهب، وكبير الفقهاء في زمانه (١).

ويقول الذهبي: كان رأساً في معرفة المذهب.

ويقول قاضي صفد محمد بن عبد الرحمن العثمان في ترجمته من الطباق الكبير (٢) له عن النووي: شيخ الإسلام، بركة الطائفة الشافعية، محيي المذهب ومنقحه، ومن استقر العمل بين الفقهاء فيه على ما يرجحه.

ويقول الشهاب أبو العباس بن الهائم (٣) في مقدمة البحر العجاج شرح المنهاج: الإمام العلامة الحافظ، الفقيه النبيل، محرر المذهب، ومهذبه، وضابطه، ومرتبه.

ويقول تلميذه ابن العطار (٤): كان حافظاً للمذهب الشافعي وقواعدته وأصوله وفروعه، ومذاهب الصحابة والتابعين، واختلاف العلماء ووفاقهم وإجماعهم، وما أشتهر من ذلك جميعه وما هجر، سالكاً في كلها طريقة السلف.

وفي كلام الأدفوي (٥) في القدر السافر (٦): أن الشيخ نوزع

_______________________________
(١) البداية والنهائية ٢٧٨/١٣.
(٢) السخاوي (١١ - ٢٢).
(٣) هو أحمد بن محمد بن عمام الدين، شهاب الدين بن الهائم، من كبار علماء الرياضيات، وحصل في الفقه، توفي سنة ٨١٥ هـ.
(٤) تهفة الطالبين مصور (٩ / ب).
(٥) وهو جعفر بن مصعب بن جعفر الأدفوي، مؤرخ، له علم بالأدب والفقه والموسيقى، توفي سنة ٧٤٨ هـ.
(٦) من السخاوي (٣٥).
مرة في نقل عن الوسيط، فقال: يناظعونني في الوسيط، وقد طالعته أربعمئة مرة!

وقد بلغ من شهرته في الفقه وتحقيقه في عصره وبعد عصره هو والإمام الرافعي من قبله إلى أن قال محمد بن علي بن عبد الواحد من علماء القرن الثامن متقدماً تقليد الناس لهذين الإمامين: "الناس اليوم رافعية لا شافعية ونبوية لا نبوية"(1).

وكان-رحمه الله-مع سعة علمه، وقوة براهينه لا يرى الجدل ولا يجد لأهله ويعرض عليهم، وكان يبتعد عن لغط ألفاظ الفقهاء وعن عياطهم(2) في البحث، وغاية ما عانه أن يبلغ ما يريد بكلام فيه تؤدة ووقار. قال الذهبي(3) في سير النبلاء: "وكان من سعة علمه عديم النظير، لا يرى الجدل، ولا تشجب المبالغة في البحث، ويتاذى ممن يجادل ويعرض عنه".

وقال في موضع آخر(4): كان - أي النووي - لا يعانى لغط

(1) الدرر الكامنة (7/143) والمراد من هذه العبارة: أن الناس لهم من الثقة بهذين الإمامين الجليلين، والأخذ بفظائهم، بحيث اكتفي بهما عن الرجوع إلى ما يقوله الشافعي، أو الرجوع إلى الدليل من السنة، وهذا إن جاز في العوام فلا ينبغي أن يتلبس به العلماء.
(2) عند السخاوي: عن ألفاظ الفقهاء وغياظهم.
(3) السخاوي 1366 هـ.
(4) المرجع السابق.
الفقهاء، وعياطهم (1) في البحث بل يتكلم بتودة ووقار.
فرحه الله كان كبيراً في علمه، كبيراً في نبله، كبيراً في أخلاقه وأدبه.

وهناك الكثير من شهادات العلماء في فقهه اجتزأنا منه بهذا القدر، وسيأتي في «ثناء العلماء عليه» ثناؤهم عليه في فقهه.

بقيت مسألة، وهي ترجيح قوله إذا اختفى مع الرافعي الكبير أو ترجيح قول الرافعي: فمن الفقهاء في بعض الجهات من يرجح قول الرافعي لأنه فيما يظهر أقصى بقواعد المذهب، وكثر من الفقهاء الشافعية يرجحون قول النووي لأنه أقصى بصحح السنة وأعلم بالحديث. يقول العلامة المؤرخ اليافعي الشافعي (2): والذي أراه أنه كلما اعتمد فيه الحديث يصح الاحتجاج به فقوله - أي النووي - مقدَّم؛ لا سيما وقد صح عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال: (إذا صح الحديث فهو مذهبي). وكذلك إذا لم يعتمد بحديث لكن تكافأت

(1) في السخاوى: لفظ الفقهاء وغيظهم ويجوز أنه أراد ما أثبتناه وتقدم قريب من هذا التعبير.
(2) هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم، من كبار فقهاء الشافعية، توفي سنة 103 هـ.
(3) هو عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي، مؤرخ متصوف من علماء الشافعية في اليمن، صاحب كتاب مرآة الجنان، توفي سنة 768 هـ.
الأدلة - يعني فيرجح قول النووي - لكونه موافقاً مؤيداً مباكاً مسداً. وإن ترجح الأدلة - يعني قول أحدهما - في أحد الطرفين، فالراجح من الحكم ما رجحه دليله، والله أعلم (1).

وقد يختلف قول النووي قليلاً في كتاب من كتبه عن كتاب، فالظاهرة أن المرجح هو آخر أقواله، لأن القاعدة أن المتأخر ينسخ المتقدم.

النوع المحدث:

مما أجمع عليه علماء الشريعة أن أفضل علم بعد كتاب الله علم الحديث، بل إن ما في القرآن الكريم من أحكام لا يبين كثير من موجزه وجوامع كلمة وخصوصه وعمومه، وناسبه ومنسوبه إلا بحديث رسول الله، والله تعالى يقول: «وَأَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْبِينَاتُ لِتُبَيِّنَ السَّبِيلَاتُ» (2). فالحديث تبيان وتشريع وهو أعظم عدة بعد القرآن الكريم للفقه وعالم الكلام والواعظ والمشتغل بالعربية، وما أطيب في ذلك فالشمس لا تبالي بمن يشير لوجودها وعظم نفعها.

وقد بذل المحدثون - منذ المئة الأولى - جهداً مذهلاً في تنقيه الحديث صحيحه وحسن من ضعيفه ومعته وموضوعه،

(1) مراة الجنان 4/185.
(2) النحل 44.
واذكر إن شئت أن البخاري (1) أخرج صحيحه ـ وعدد
أربعة آلاف حديث غير المكرر ـ من ركام من الأحاديث تقدر
بست مائة ألف حديث، وكذلك مسلم (2) نحو ذلك، والإمام
أحمد (3) استتفى من نحو سبعمائة وخمسين ألف حديث,
ثلاثين ألفاً في مسنده ومع ذلك لم يخل مسنده من الضعف.

وكلما جاءت فترة من الزمن جاء لها محدثون ووجدوا في
الحديث شغلاً جديداً: استدراكاً أو شرحاً أو تصحيحاً. وفي فترة
العصور الإسلامية الوسطى وجد أمثال ابن الصلاح والنووي
والهذي والهذي (4)، وآخر الكبار الحافظ ابن حجر (5) شارح
البخاري.

(1) هو محمد بن إسمعيل بن إبراهيم أبو عبد الله البخاري حبر الإسلام
صاحب الجامع الصحيح، توفي سنة 256 هـ.
(2) هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، حافظ من أئمة المحدثين،
توفي سنة 261 هـ.
(3) هو أحمد بن محمد بن حنبل، إمام المذهب الحنبلي واحد الأئمة
الأربعة، توفي سنة 241 هـ.
(4) تقدمت تراجمهم إلا المزي فهو: يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف
جمال الدين بن الزكي الكلبي المزي، محدث الديار الشامية في
عصره، توفي في دمشق، سنة 742 هـ.
(5) هو أحمد بن علي بن محمد العقلاني شهاب الدين بن حجر، إمام
في الحديث والتاريخ، توفي سنة 852 هـ.
وامتاز النووي من بينهم بأنه فقيه الأمة، وقلما اجتمع لعالم تبحر في الفقه واتقان لعلوم الحديث، يقول تلميذه ابن العطار: سمع البخاري ومسلمًا وسنن أبي داود والترمذي، سمع النسائي بقراءته، وموطأ مالك، ومسند الشافعي، ومسند أحمد بن حنبل، والدارمي، والداوسي، وابن عوانة الأسفراييني، وأبي يعلى الموصلي,

(1) تحفة الطالبين 8/ أ، ب.
(2) هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني إمام أهل الحديث في زمانه، توفي سنة 275 هـ.
(3) هو محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي، من كبار حفاظ الحديث وعلمائه، توفي سنة 279 هـ.
(4) هو أحمد بن علي بن شعيب النسائي، صاحب السنن، علامة في الحديث، توفي سنة 303 هـ.
(5) مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، وشيخ الشيوخ في الحديث، وأحد أئمة المذاهب، توفي سنة 179 هـ.
(6) هو محمد بن إدريس بن العباس الشافعي إمام المذهب، توفي سنة 204 هـ.
(7) هو عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني، محدث هراة، له المسند، توفي سنة 280 هـ.
(8) هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري أبو عوانة، من أكابر حفاظ الحديث، له الصحيح المسند توفي سنة 316 هـ.
(9) هو أحمد بن علي بن المتنى التيمي الموصلي أبو يعلى، محدث.
وسن ابن ماجة(1)، والدارقطني(2)، والبيهقي(3)، وشرح السنة للبغوي(4)، ومعالم التنزيل له في التفسير، وكتاب الأنساب للزبير بن بكار(5)، والخطب النباتية، ورسالة القشيري(6)، وعمل اليوم والليلة لابن السني(7)، وكتاب آداب السامع والراوي للخطيب(8)، وأجزاء كثيرة غير ذلك. يقول ابن العطار: نقلت ذلك جميعه من خط الشيخ رحمه الله.

الموصول، جارض في السن المائة، وتوفي سنة 307 هـ.
(1) هو محمد بن يزيد الربعي الفزوي، أحد الأئمة في الحديث، توفي سنة 273 هـ.
(2) هو علي بن عمر بن أحمد أبو الحسن الدارقطني الشافعي، إمام عصره في الحديث وأول من صنف القراءات، توفي سنة 385 هـ.
(3) هو أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر، من أئمة الحديث، وما أحد نصر المذهب الشافعي مثله توفي سنة 458 هـ.
(4) هو عبدالله بن محمد بن عبد العزيز أبو القاسم البيغوي حافظ عالم، توفي سنة 317 هـ.
(5) الزبير بن بكار بن عبدالله القرشي، من أحفاد الزبير بن العوام، عالم بالأنساب وأخبار العرب، توفي سنة 356 هـ.
(6) هو عبدالكريم بن هوازن بن عبد الملك بن بني قشير بن كعب، زين الإسلام شيخ خراسان في عصره زهداً وعراً، توفي سنة 465 هـ.
(7) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم، يعرف بابن السني، الحافظ الإمام الثقة، توفي سنة 364 هـ.
(8) هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي أبو بكر، أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين، توفي سنة 413 هـ.
وقد روى النووي أشهر هذه الكتب بالسند العالي إلى الأئمة المؤلفين.


ويقول رحمه الله في إسناده إلى الكتب الأربعة بعد ما تقدم: وكذلك اتفقت لنا بهذا العدد رواية الكتب الأربعة بحمد الله، التي هي تمام الكتب الخمسة التي هي أصول الإسلام، أعني: صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي.

ويقول في مسندي الإمام أحمد بن حنبل وابن ماجه: وكذلك وقع لنا بهذا العدد مسند الإمامين أبوبدالله: أحمد بن حنبل ومحمد بن زيد، أعني ابن ماجه.

ويقول في موطأ مالك: ووقع لنا أعلى من هذه

58
الكتب - وإن كانت عالية - موطأ الإمام أبي عبدالله مالك بن أنس، فبينا وبينه - رحمه الله - سبعة، وهو شيخ الشيوخ المذكورين كلهم (1).

ويقول ابن العطار: ومنها - أي من مسموعاته - كما رأيته بخط الشيخ وهو عندي أتبرك برؤيته كل قليل: كتاب الأربعين للحاكم (2) على الشيخ خالد النابلسي، وأجزاء من كتاب المستقصى في فضل المسجد الأقصى لأبي محمد القاسم بن علي ابن عساكر (3) على التوقي إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر في سنة 166 بجامع دمشق.

ونذكر الآن بعض من شهد به محدثاً، يقول الذهبي (4): وهو - أي النووي - سيد هذه الطبقة، ويقول ابن العطار في أثناء شهادة له فيه: ... حافظًا لحديث رسول الله ﷺ، عارفًا بأنواعه كلها من صحيحه وسقيمه وغريب ألفاظه صحيح معانيه واستنباط فقهه.

(1) شرح مسلم المقدمة 1/6.
(2) هو محمد بن عبدالله بن حموده النيسابوري الشهير بالحاكم، من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه، توفي سنة 405 هـ.
(3) من المحدثين والمؤرخين في عصره، وهو ابن صاحب كتاب تاريخ دمشق توفي سنة 1000 هـ.
(4) التذكرة 4/1472.
ويقول الذهببي (1) أيضاً: مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه والعمل بدقائق الورع والمراقبة، وتصفية النفس من الشوائب، ومحقها من أغراضها، كان حافظاً للحديث وفتوحه ورجاله وصحيحه وعليله.

ودونك ما يقوله النووي في أهم أنواع علوم الحديث، يقول (2): "من أهم أنواع العلوم تحقيق معرفة الأحاديث النبوية، أي معرفة متونها، صحيحها وحسنها وضعيفها، متصلها ومرسلها ومنقطعها ومعضلها وملقوها، مشهورها وغريبها، متواترها وأحادها وأفرادها، معروفها وشاذها ومنكرها ومذرجها ومقررة، وناصرها ومتسخها، وخاصها ومجملها ومبينها ومختلفها، وغير ذلك من أنواعها المعروفات.

ومعرفة علم الأسانيد يعني معرفة حال رجالها وصفاتهم المعتبرة، وضبط أسمائهم وأنسابهم ومواليدهم ووفياتهم وغير ذلك من الصفات، ومعرفة التدليس والمدلسين، وطرق الاعتبار والمتابعت، ومعرفة حكم اختلاف الرواة في الأسانيد والمتون والوصول والرسائل، والوقف والرفع والقطع والانقطاع وزيادة الثقاف.

(1) التذكرة 4/2741.
(2) مقدمة شرح مسلم 3-6.
ومعرفة الصحابة والتابعين وأتباعهم، وأتباع أتباعهم ومن بعدهم رضي الله عنهم وعن سائر المؤمنين والمؤمنات.

هذه هي علوم الحديث التي لا بد منها للمحدث المتقن، وما عرضها النووي إلا وهو يتقنها اتقان كبار المحدثين في عصره ودليل ذلك مثبت في مؤلفاته الفقهية الحديثية، وفيما ألفه من علم مصطلح الحديث: كالإرشاد الذي اختصره من كتاب علوم الحديث لابن الصلاح، والتقريب الذي اختصره من الإرشاد، وشرح مقدمة صحيح مسلم في المصطلح.

ويقول ابن العطار (1): وقرأ على الشيخ أبي البقاء خالد بن يوسف بن سعد النابلسي الحافظ، «الكمال في أسماء الرجال» للحافظ عبد الغني المقدسي، وعلق عليه حواشي، وضبط عنه أشياء حسنة.

قال السخاوي (2): وكذا رأيت علّق فوائد على الأنساب (3) لابن الأثير، ولازم - كما قال القاضي عبد القادر (4) في طبقات الحنفية - الإمام المحدث الكبير الضياء بن تمام الحنفي في سماع

(1) تحفة الطلابين 8/ أ.
(2) السخاوي "10".
(3) المسنى باللباب في تهذيب الأنساب.
(4) ولعله عبد القادر بن محمد بن أبي الكرم، فقه حنفي سمع من ابن الصلاح، توفي سنة 196 هـ.
الحديث وما يتعلق به، قال: وعلىه تخرج وله انتفع. وفي تحفة الطالبين: أنه أخذ علوم الحديث لابن الصلاح عن جماعة من أصحابه(1).

النوروي وفقه الحديث:

أكثر المحدثين في كل عصر يهتمون بجمع الحديث ونقده، ومعرفة رجاله، ويتسابقون إلى السند العالي. وكلما كان السند أقل رجالا بشرط الاتصال حتى يبلغ النبي ﷺ يكون الحديث أثمن، لدنوه من الصحة بقريه من النبي ﷺ وهو موضوع افتخار بين المحدثين، وكانوا يصرفون عمرهم في هذا السبيل. وكثيراً ما يسأل أحدهم عن فقه حدث فلا يحسن، ورحمة الله أحمد بن حنبل، قال: (لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث) مع أنه كان محدث الدنيا، ولذلك قلنا من قبل: قلما اجتمع في عالم فقه وحديث.

وما كان النووي رحمة الله يحبس علمه في الحديث في نطاق هذه النواقل للمحدثين، وإنما كان همه في الحديث معرفةً ما ذكره في مقدمة صحيح مسلم وقد تقدم، ثم الانصرف إلى فقهه. وله في فقه الحديث شيوخ، منهم الشيخ المحقق أبو إسحاق إبراهيم بن عيسى المرادي الأندلسي(1)

(1) التحفة لابن العطار ص 8 / 1.
الشافعي
الله، شرح عليه مسلاً، ومعظم البخاري، وجملة مستكثرة من الجمع بين الصحيحين للحميدي.

من سمع منه الحديث:

يقول ابن العطار تلميذه: وسمع منه خلق من العلماء والحفاظ والصدور والرؤساء.

ويقول الذهبي: وحدث عنه ابن أبي الفتح، والمزي وابن العطار.

ويقول السبكي: روى عنه شيخنا المزي - قرأت عليه عنه جميع الأربعين التي له وشرح مشكلها - وأبو الحسن العطار، وأخذ عنه المحدث أبو العباس أحمد بن فرح الأشبيلي، كان له ميعاد عليه يوم الثلاثاء والسبت، شرح في أحدهما البخاري وفي الآخر صحيح مسلم.

(1) قال فيه النووي: الفقيه، الإمام الحافظ المتقن، المحقق الضابط، الزاهد الورع... إلى أن قال: صحبه عشر سنين، توفي سنة 668 هـ.

(2) هو محمد بن فتح بن عبد الله، محدث مؤرخ، كان ظاهري المذهب، توفي سنة 488 هـ.

(3) التحفة 8/ أ.

(4) التذكرة 1471.

(5) الطبقات الكبرى 376 هامش.
وقرأ عليه: الرشيد إسماعيل بن المعلم الحنفي في شرح معاني الآثار للطحاوي، وسمع منه: أبو عبدالله محمد بن أبي الفتح الحنبلي، وسمع عليه الأربعين بإشارةها، وحدث بها.

والمحدث الفاضل الأديب الكامل أبو الفضل يوسف بن محمد بن عبدالله المصري ثم الدمشقي - وكان قارئ دار الحديث الأشرفية - وآخرون.

وهناك كثيرون غيرهم نجد معظمهم في ترجمة النووي للسخاوي.

مذهبه في العقائد:

لا نعلم للنوفي شيخاً مخصصاً في علم التوحيد، وإن كان لا بد للعالم الشرعي من أن يكون متمكناً ومحيطاً بما كتب العلماء في العقائد، ويظن أنه قرأ هذا العلم على أحد شيوخه، وكتابه "شرح مسلم" فيه الكثير من العقائد على أصول أهل السنة، وهو سلفي العقيدة ويؤول أحياناً على طريقة المتأخرين.

صرح اليافي والتاج السبكي (1) رحمهما الله: أنه أشعي (2).

وقال الذهب في تاريخه: إن مذهب في الصفات السمعية

__________________________________________

(1) هو عبد الوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي تاج الدين قاضي القضاة، المؤرخ، صاحب الطبقات، توفي سنة 771 هـ.

(2) السخاوي (36).

٦٤
السكت، وإمرارها كما جاءت، وربما تأوَّل قليلاً في شرح
مسلم(1).
ويقول السخاوي: والتأويل كثير في كلامه(2).
وله رحمة الله مؤلف في التوحيد، وهي رسالة سماها
المقاصد(3).

النويو اللغوي:

لا يقوى أحد على فهم الكتاب والسنة والتفقه بهما
وإبان الأحكام منها، ويستوعب عبارات أئمة الدين من
المتقدمين بل المتأخرين، حتى يتقن العربية: نحوها وصرفها
واشتقاقها، ومعاني مفرداتها، وهذا ما يراه النووي وبحث عليه،
يقول رحمة الله في مقدمة كتابه تهذيب الأسماء واللغات:

أما بعد: فإن لغة العرب لما كانت بال محل الأعلى
والمقام الأدنى وبا يعرف كتاب رب العالمين، وسنة خير
الأولين والآخرين وأكرم السابقين واللاحقين، صلوات الله عليه
وعلى سائر النبيين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، اجتهد
أولو البصائر والأنفس الزوايا، والهمم المذهبة العاليات في

(1) المرجع السابق.
(2) المرجع السابق.
(3) كما في الأعلام.

65
الاعتناء بها والتمكن من إتقانها، بحفظ أشعار العرب وخاطبهم ونشرهم وتغير ذلك من أمرهم. وكان هذا الاعتناء في زمن الصحابة رضي الله عنهم مع فضائلهم نسباً وداراً، ومعرفتهم باللغة استظهاراً، لكن أرادوا الاستكثار من اللغة التي حالا ما ذكرنا ومحلها ما قدمنا، وكان ابن عباس وعائشة وغيرهما من رضي الله عنهم يحفظون من الأشعار واللغات ما هو من المعروفات الشائعات.

وأما ضرب عمر بن الخطاب وابنه رضي الله عنهما أولادهما لتفريقهم في حفظ العربية، فمن المنقولات الواضحات الجليلة. وأما المنقول عن التابعين ومن بعدهم في ذلك فهو أكثر من أن يحصر وأشهر من أن يذكر. وأما ثناء إمامنا الشافعي رحمه الله وحثه على تعلم العربية في أول رسالته، فهو بمقتضى منصبه وعظم جلالته.

ولا حاجة إلى الإطالة في الحث عليها، فالعلماء مجمعون على الدعاء إليها، بل شروطها في المفتى والإمام الأعظم والقاضي لصحة الولايات، واتفقوا على أن تعلمها من فروض الكفايات»(1).

وما أظن أحداً من علماء الدين في عصر النورى أتقن العربية إتقانه لها، فهو يもちろ أن نحوي وصرفي بارع - لغوي

(1) تهذيب الأسماء واللغات 1/2 ـ 3 ـ 66
محقق كأحسن ما يكون اللغوي المحقق، واقرأ إن شئت مقدمة كتابه "تحرير ألفاظ التنبيه" يقول رحمه الله بعد كلام عن قيمة كتاب التنبيه"((1): "والنوع الثاني: بيان لغاته، وضبط ألفاظه وبيان ما ينكر مما لا ينكر، والفصيح من غيره، وقد استخرت الله الكريم الرؤوف الرحيم في جمع مختصر أذكر فيهً إن شاء الله تعالى: اللغات العربية والمغربة، والألغاز المولدة، والمقصورة والممدودة، وما يجوز فيه المذكر والمؤنث، والمجموع والمفرد والمشتق، وعدد لغات اللفظة، وأسماء المسمى الواحد المترا大夫ة وتعريف الكلمة، وبيان اللفاظ المشتركة ومعانيها، والفروق بينها كلفظة الإحصان، وما أختلف فيه أنه حقيقة أو مجاز كلفظة النكاح، وما يعرف مفرده، ويجهل جمعه وعكسه، وما له جمع، وما له جموع، وبيان جمل ما يتعلق بالهجاء، وما يكتب بالواو والياو والألف، وماقيل جوازه بوجهين أو بثلاثة كالربا. وأبه فيه على جمل من مهمات قواعد التصريف المكررة، وأذكر فيه جملًا من الحدود الفقهية المهمة: كحد المثلي وحد الغصب ونحوهما، والفرق بين المتشابهات كالهبة والهدية وصدقة التطوع، وكالرشوة والهدية، وبيان ما قد يلحن فيه، وما أنكر على المصنف عنه جواب، وما لا جواب عنه، وما غيره أولى منه، وما هو صواب وتوهم جماعة أنه غلط، وما ينكر من جهة

(1) تحرير ألفاظ التنبيه مخطوط ورقة "1".

67
نظم الكلام وتداخله، والعام والخاص وعكسه، وبيان جمل مهمة ضبطتها عن نسخة المصنف وهي صواب، وفي كثير من النسخ خلافها، وبيان ما أنكر على الفقهاء وليس منكراً، وبيان جمل من صور المسائل المشكلة مما له تعلق بالألاظ، وغير ذلك من التفاس المهمات، كما ستراها في مواضعها إن شاء الله تعالى وافضحاً. وأنتم فيه المبالغة في الإيضاح مع الاختصار المعتدل، والضبط المحكم المهذب، وقد أضطرب ما هو واضح، ولكن قد يخفى على بعض المبتدئين، ولتي ما ذكرت فيه لغتان أو لغتان قدمت الأفضلى ثم الذي يليه، إلا أن أنه عليه، وما كان من لغاته ومعانيها غريباً أضيفها غالباً إلى ناقلته. وهذا الكتاب وإن كان موضوعاً للتنبيه على ما في التنبيه فهو شرح لمعظم ألفاظ كتب المذهب وعلى الله اعتمادي».

وكتاب «تحرير التنبيه» شبيه بالكتاب اللغوي المتداول المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، من حيث أن كليهما شرح للفئاظ المبهمة في كتاب للفقه الشافعي، فالنبو: التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي، والثاني: الشرح الكبير للرافعي شرح فيه كتاب «الوجيز» للإمام الغزالي. وسماه: فتح العزيز في شرح الوجيز، ولكن كتاب «تحرير التنبيه» موجز مع الاستيعاب للمسائل، وفيه مما تحدث عنه في المقدمة ما لا يوجد في المصباح ويتتاز المصاحب بترتيبه مع حروف المعجم مع سعته نسبياً في المفردات.
وأما كتابه «تهذيب الأسماء واللغات» فهو أيضا كتاب وضع لإيضاح أسماء ولغات في كتب فقهية كبيرة معتمدة في المذهب الشافعي، وهذه الكتب هي: «مختصر المزني»(1) و«المنهج والتنبيه» لأبي إسحاق الشيرازي «والوسط والوجيز» للإمام الغزالي و«الروضة» للنووي.

يقول النووي: "فإن هذه الكتب ستجمع ما يحتاج إليه من اللغات، وأضم إلى ما فيها جملًا مما يحتاج إليه مما ليس فيها ليعم الانتفاع به إن شاء الله تعالى: اللغات العربية والعجمية والمعرية والإصطلاحات الشرعية، والألفاظ الفقهية، وأضم إلى اللغات ما في هذه الكتب من أسماء الرجال والنساء والملائكة والجن وغيرهم(2).

وهذان الكتابان: «تحرير التنبيه» و«تهذيب الأسماء واللغات» يدلان على تمكن الإمام بعلم اللغة تمكنًا قل نظيره في نظرائه في عصره.

يقول ابن قاضي شهبة في كتابه «طبقات النحاة واللغويين»(3):

(1) هو إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل أبو إبراهيم المزني، صاحب الإمام الشافعي، كان مجتهداً قوي الحجة، توفي سنة 264.
(2) تهذيب الأسماء واللغات «المقدمة».
(3) مخطوط رقم 529.
أبٍ زكريا النووي الفقيه، الحافظ اللغوي، شيخ الإسلام، صاحب التصانيف المشهورة، كان إماماً في اللغة والنحو. قرأ ذلك على الشيخ جميل الدين بن مالك، ونقل عنه في تصانيفه، وصنف تهذيب الأسماء واللغات، وتركه مسودة، وهو يدل على تبحره في علم اللغة، وكذلك كتابه التحرير على كتاب التنبيه، فذكرته (1) بسبب ذلك.

وقد مر معنا في أول أمره أنه كان يقرأ في جملة ما يقرأ كل يوم درساً في إصلاح المنطق لابن السكين في اللغة، ودرسًا في التصريف، ودرسًا في اللُّمع لابن جني في النحو.

محاولة اشتغاله بالطب:

يجوز أن يكون النووي قد استجاب لرغيب إمامه الشافعي بتعلم الطب، وذلك بقوله فيه: «لا أعلم علماً بعد الحلال والحرام - أنبل من الطب، إلا أن أهل الكتاب غلبونا عليه» (2)

ولكن النووي الزاهد المتقي، لا يتفق مواجهة إلا مع علم يجعله وسيلة إلى النجاة يوم القيامة، كعلوم الدين ووسائلها، لذلك نفرت نفسه وشعر بظلمة في قلبه حين حاول أن يتعلم الطب، يقول النووي في ذلك (3):

(1) أي ذكره في طبقات النحاة واللغويين.
(2) كتاب الإمام الشافعي لمؤلف هذا الكتاب ص 273.
(3) السخاوي 6 - 7 والتذكرة 4/1470.
وخطر لي الاشتغال بعلم الطب، فاشترتي القانون (لا ابن سينا) وعزمت على الاشتغال فيه، فأظلم عليّ قلبي، وبيتني أياماً لا أقدر على الاشتغال بشيء، ففكرت في أمري: من أين دخل عليّ الداخ! فألهمني الله أن اشتغالي بالطب سببه، فبعث في الحال الكتاب المذكور، وأخرجت من بيتي كل ما يتعلق بعلم الطب فاستنار قلبي ورجع إلي حالي، وعدت لما كنت عليه أولًا.

يقول السحاوي (1): فإنّ قيل: كيف هذا مع ما نقلّ - كما روينا في مناقب الشافعي للبيهقي - من طريق الربيع بن سليمان، سمعت الشافعي يقول: العلم علمن: علم فقه للأديان وعلم طب للأبدان، ونحوه عن ابن عبد الحكم عن الشافعي، وزاد: وما سوى ذلك فبلغة مجلس? فالجواب أن الذي مدحه الشافعي رحمه الله هو الطب النبوي، أو المجرد عن أصول الفلاسفة الذي صرح صاحب القانون في أوله بابتناء الطب المورد في كتابه عليها، وأن الطبيب يتعلم ما يبني عليه من العلم الطبيعي ولذلك اعتبر الشيخ رحمه الله بمجرد عزمه على الاشتغال في الكتاب المذكور ما أشار إليه، لما رزقه الله من نور البصيرة، وأبداه له بصلاح السريرة، خصوصاً وعنده من الطب المحمود ما يفوق الوصف. 

(1) ترجمة النويوي له (7).

71
وليس معنى انصرفه عن تعلم الطب أنه لا يعلم منه شيئًا، بل الحق أنه يعلم الكثير من شؤون الطب المعروفة في عصره، وهكذا أمثلة قليلة من معرفته:

يقول رحمة الله في تعليقه على قول النبي ﷺ: "الكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء بريء بإذن الله"، يقول (1): «فهذا فيه بيان واضح لأنه قد علم أن الأطباء يقولون: المرض هو خروج الجسم عن المجرى الطبيعي، والمداواة ردعه إليه، وحفظ الصحة بقاؤه عليه، فحفظها يكون بإصلاح الأغذية وغيرها، ورده يكون بالموافق من الأدوية المضادة للمرض. وبقراط يقول: الأشياء تداوي بأضدادها، ولكن قد يدق ويغمض حقيقة المرض، وحقيقة طبع الدواء، فيقل الثقة بالمضادة، ومن هنا يقع الخطأ من الطبيب فقط، فقد يظن العلة عن مادة حارة فيكون عن غير مادة أو عن مادة باردة، أو عن مادة حارة دون الحرارة التي ظنها فلا يحصل الشفاء. فكأنه تلقى نبه بآخر كلامه على ما قد يعارض به أوله، فيقال: قلت: لكل داء دواء ونحن نجد كثيرين من المرضى يداوون فلا يبرؤون، فقال: إنما ذلك لفقد العلم بحقيقة المداواة لا لفقد الدواء، وهذا واضح والله أعلم». 

وهذا الذي قاله النووي رحمة الله مستمدةً من الحديث النبوي، صادق التطبيق في كل زمان ومكان.

(1) شرح مسلم للنوي 14/192 - 194.  

72
ويقول أيضاً - رحمه الله - شارحاً للحديث في مسلم، وهو قوله عليه الصلاة والسلام:
«إن كان في شيء من أدويتك خير ففي شرطة محجم، أو شربة من عسل، أو لذعة بنار».

يقول النوروي: فهذا من بديع الطب عند أهله، لأن الأمراض الامتلائية دموية أو صفراوية أو سوداوية أو بلغمية، فإن كانت دموية فشفاؤها إخراج الدم، وإن كانت من الثلاثة الباقية فشفاؤها بالإسهال بالمسهل اللائق لكل منها، فكأنه نبه بالعسل على المسهلات، وبالحجامة على إخراج الدم والقصد ووضع العلق وغيرها مما في معناها، وذكر الكي لأنه يستعمل عند عدم نفع الأدوية المشروبة ونحوها، فآخر الطب الكي.

ثم يقول معلقاً راداً على بعض الملحدين:
إن علم الطب من أكثر العلوم احتياجًا إلى التفصيل، حتى إن المريض يكون الشيء دواءه في ساعة، ثم يصير داء له في الساعة التي تليها، بعارض يعرض من غضب يحمي مواجه، فيغير علاجه، أو هواء يتغير، أو غير ذلك مما لا تحصى كثارته، فإذا وجد الشفاء بشيء في حالة الشخص لم يلزم منه الشفاء به في سائر الأحوال وجميع الأشخاص، والأطباء مجمعون على أن المرض الواحد يختلف علاجه باختلاف السن والزمان والعادة والغذاء والتدبير المألوف وقوة الطباع.

٧٣
ثم يقول: فثبت بما ذكرناه أن العسل جار على صناعة الطب، وأن المنتصر عليه جاهل لها، ولسنا نقصد الاستظهار لصديق الحديث بقول الأطباء، بل لو كذبوه كذبناهم وكفرناهم، فلو أوجدوا المشاهدة بصحة دعواهم تأولنا كلامه حينذاك وخرجناه على ما يصح... الخ ما قال.
المدارس التي سكنها أو تولاه أو درس بها

قدمنا أول الكتاب: أنه قصد إلى شيخه أبي إسحاق المغربي شيخ المدرسة الرواحية ليبحث له عن بيت في مدرسة يأوي إليه، بإشارة من شيخه الأول الفركاح، فمنحه شيخه المغربي بيتا في الرواحية، فاتخذه سكننا له حتى أدركته الوفاة. وقد حددها موضع المدرسة أول الكتاب.

المدرسة الإقبالية:

هي - كما قال النعيمي - داخل باب الفرج، وباب الفرديس، شمالي الجامع والظاهرية الجوانية (1) يعني هي - بعرفنا اليوم - بزقاق السبع طوالع من غربيه في الجهة الشمالية (2).

وهي مدرسة كبيرة شهيرة للفقه الشافعي، ولم يبق لها من

(1) البداية والنهاية 1379/1327.
(2) مساحة الأطلال لـبردان 81.
أثر إلا واجهتها، وتحولت إلى بيت للسكن، ودرس بها جماعة من العلماء الكبار، منهم: بدر الدين بن خلكان، ثم شمس الدين בן خلكان، وباشر النومي التدريس في الإقامة نيابة عن الشمس ابن خلكان (1) إلى آخر سنة 269 هـ (2).

الفلكية والركنية:

مدرستان متجاورتان عفا عليهما الزمان، وهما داخل بابي الفرج والفراديس بحارة الافترس والفلكية، غربي الركة، وقد ناب بهما أيضاً الإمام النووي (3).

دار الحديث الأشرفية:

 أشهر دار في بلاد الشام لعلم الحديث، دار الحديث الأشرفية، وقد كانت داراً لصام الدين قايمزة بن عبد الله النجمي (4)، واقف القيمازية (5)، وله بها حمام، فاشترى ذلك

(1) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان أبو العباس، المؤرخ الحجة، والأدب الماهر، والفقه العالم، صاحب وفيات الأعيان، توفي سنة 181 هـ.
(2) البداية والنهية /279/3279.
(3) المرجع نفسه.
(4) الأمير صارم الدين قايمزة، كان يتولى أسباب صلاح الدين في مخيمه وبيته، كان مشهوراً بالخير والإفلاك، توفي سنة 596 هـ.
(5) هي مدرسة للحنفية جنوب دار الحديث.

76
الملك الأشرف (1) مظفر الدين، موسى بن العادل، وبناء دار الحديث، وأخرج الحمام بناها مسكناً للشيخ المدرس بها، وتم بناء ذلك في ستيني، وجعل شيخها تقي الدين بن الصلاح.

وذكر السبط (2)：“في سنة ثلاثين وستمائة في ليلة النصف من شعبان فتحت دار الحديث الأشرفية، وأملى بها الشيخ تقي الدين بن الصلاح الحديث.

وقف عليها الملك الأشرف الأوقاف، وجعل بها نعل النبي ﷺ. ومكانها معروف وهي في أول منططف في سوق العصرية على اليسار، بجوار باب القلعة الشرقي وغربي المدرسة العصرونية.

ومن شرط وافقها في الشيخ أنه إذا اجتمع من في الرواية ومن فيه الدراسة، قدّم من في الرواية، وظاهر أن من اجتمع فيه الرواية والدراسة أولى بمشيختها ممن فيه إحداهما. والمتعارف عليه ألا يلي مشيختها إلا عظيم وقته بالعلم وخصوصاً علم الحديث، ومن لقب الشيخ دار الحديث فقد تألف في العلم أجل الألقاب. وهكذا بعض من وليها: فأولهم حكماً قدمنا الإمام

(1) هو موسى بن محمد العادل أبي بكر، من ملوك الدولة الأيوبية بالشام، توفي سنة 635 هـ.

(2) وهو يوسف بن قزغلي أبو المظفر سلط أبي الفرج بن الجوزي، مؤرخ واعظ مفسر، توفي سنة 654 هـ.

77
المحدث الفقيه تقي الدين بن الصلاح، ولي مشيختها ثلاث عشرة سنة، ثم ولي بعده: الشيخ جمال الدين عبد الصمد بن محمد الأنصاري الخزرجي الدمشقي ابن الحرستاني إلى أن توفي سنة 662 هـ.

ثم ولي بعده شهاب الدين أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي إلى أن توفي سنة 665 هـ. ثم وليها بعده الإمام النووي إلى أن توفي سنة 676 هـ (1) ولننقف هنا وقفة قصيرة:

الظاهر أن النووي رحمه الله لم يطلبها، بل دفعها عنه، ولم يقبلها إلا بعد جهد، ويدل على ذلك ما كتبه في رسالة لابن النجار حين هددته هذا بإقالته منها قال: "أو ما علمت لو أنصفت كيف كان ابتداء أمرها، أو ما كنت حاضراً مشاهداً أخذي لها".

ويقول القطب اليوونيني (2): ونشر بها - أي النووي - علماً جماً، وأفاد الطلبة. وقال:

والذي أظهره وقدمه على أقرانه، ومن هو أفقه منه: كثرة زهده في الدنيا، وعظم دبائه وورعه، وليس فيمن اشتغل عليه من يلتحق به.

(1) من الدارس 1/102-21.
(2) السخاوي 29.

٧٨
وقرى عليهم البخاري ومسلم بدار الحديث الأشرفية
سامعاً وبحثاً، وقرى عليه الرسالة للقشيري، وصفة الصفوة،
وكتاب الحجة على تارك المحجة لنصر المقدسي، بحثاً
وسامعاً.

يقول ابن العطار (1): وحضرت معظم ذلك، وعلقت عنه
أشياء في ذلك وغيره، فرحمة الله ورضي عنه.

وقال التاج السبكي (2): قال والدي: إنه ما دخلها - أي دار
الحديث الأشرفية - أعلم ولا أحفظ من المزي، ولا أورع من
النواوي وابنصلاح.

وقال التاج السبكي: ودرس - أي النووي - دار الحديث
الأشرفية وغيرها ولم يتناول فلساً واحداً.

ونرجع إلى القول فيمن وليها بعد النواوي: وهو الشيخ
زين الدين أبو محمد عبد الله بن مروان بن عبد الله الفارقي، وهو
الذي عمر دار الحديث هذه بعد خرابها في فتنة قازان، وقد
باشرها سابعاً وعشرين سنة إلى حين وفاته.

ثم وليها بعد الفارقي صدر الدين ابن الوكيل شيخ الشافعية

1) تحفة الطالبين 8 / ب.
2) نفس المرجع.
3) الدارس 6/36.

79
في زمانه إلى حين وفاته سنة 716 هـ. 

وبعدة باشر الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني مشيخة دار الحديث الأشرفية، ثم لم يستمر بها سوى خمسة عشر يوماً حتى انتزعها منه كمال الدين ابن الشريشي، وباشرها في الثامن من شهر رمضان سنة 716 هـ.

وبعده في سنة 718 هـ تولى مشيختها أبو الحجاج المزري، وليث في ولايتها ثلاثاً وعشرين سنة.

وبعده قاضى القضاة تقي الدين أبو الحسن علي بن القاضي زين الدين السبكي الأنصاري الخزرجي (1).

وبعده هؤلاء كثيرون: منهم ابن كثير والاتاج السبكي.

وممن أدركته - وحسبي مفخرة أن أدركه - ممن تولى أمر دار الحديث محدث زمانه: الحافظ الأكبر الشيخ محمد بن بدر الدين يوسف البياني الشهير بالحسني، المتوفى سنة 1354 هـ، وكان والده رحمة الله قد تولى بناءها بعد أن تهدمت، وليث الشيخ فيها أكثر من خمسين سنة يتصدى لإقراء الوافدين عليه من طلاب العلم.

خلافيه مع التاج الفزاري:

tاج الفزاري - وعرف بالفركاح - مفتي بلاد الشام، وعلم

(1) الدارس 6/36.
من أعلام القرن السابع، وهو من شيوخ الإمام النووي، أول شيخ له وهو أكبر منه بسبع سنين، وتقدم معنا في أول الكتاب في "بدء اشتغاله بطلب العلم".

ومن عادة النووي المبالغة في احترام شيوخه وتقديرهم، إلا إذا رآهم انحرفوا عن نصوص المذهب، أو عن صريح السنة، فإنه يؤثر صداقة ما يراه الحق على صداقة كل الناس حتى شيوخه، وهذا سبب الوحدة بينهما، ودونك القصة:

عندما فتح الملك الظاهر الفتوحات المشهورة، وعم الناس الجواري، وتسربوا بهم، سئل التاج الفزاري فرخص في ذلك، وصنف جزءاً في إباحة ذلك من غير تخميص، واستدل بأشياء منها قسم رسول الله ﷺ غنائم بدر، وأعطى منها من لم يشهدها، وربما فضل بعض حاضريها على بعض، ثم نقل بعد ذلك في الغنائم أحوالاً مختلفة، تقلب على حسب المصلحة. ثم ذكر غزوة حنين وقسم غنائمها، وأنه أكثر لأهل مكة من قريش وغيرهم حتى إنه يعطي الرجل الواحد مائة ناقة، والآخر ألف شاة، ومعلوم أنه لم يحصل لكل حاضر في هذه الغزاة مثل هذه العدة من الإبل والشياه ولم يعط الأنصار شيئاً - وكانوا أعظم الكتيبة وجل العسكر وأهل النجدة حتى عتبوا، وهذا حديث صحيح مخرج في جميع الأصول المعتمدة من كتب الحديث، وكان أعدل الناس في قسمه، وأعدلهم في بيان حق.

81
أحقهم في إزالة شبهة، فلما اقتصر على مدل الأنصار بما رزقهم الله من السابقة في الإسلام، وما خصهم به من محبتهم إياهم، ولسواك فجهم دون فج غيرهم، ورجوعهم إلى منازلهم به عوضًا، عما رجع به غيرهم من الأموال والأنعام، علم كل ذي نظر صحيح أنه عليه السلام فعل في هذه الغنائم ما اقتضاه الحال من المصالحة من عطاء وحرمان وزيدوا وأنصوا، ثم لم يعلم بعد هذا الحكم ناسخ ولا ناقض، بل فعل الأئمة بعده ما يؤكده. ثم قال: ولولا خشية الإطالة لتقصينا الآثار الواردة في قسم الغنائم من الأئمة الراشدين ومن بعدهم، حتى إن المتلألئ المتتبع الآثار لو أراد أن يبين أن غنيمة واحدة قسمت على جميع ما يقال في كتب الفقهاء من النفل والرضخ والسلب وكيفية إعطاء الفارس والراجل وتعيم كل حاضر، لم يكد يجد ذلك منقولاً من طريق معتمد... واستدل بأشياء كثيرة.

قال القطب اليونيني: فحصول للناس بقوله خير عظيم لأن الناس لم يزالوا يغنمون، وستولدون الجواري ويبيعونهن، فيحكم الحاكم بصحة بيعهم وشرائهم وإجراء جميع ما يتعلق بهم على حكم الصحة، ولو فتحوا باب تخميس الغنائم لحرم وطأ كل جارية تغنم قبل تخيمها، لأن نكاح الجارية المشتركة حرام، فيؤول ذلك إلى مفاسد كثيرة.

ولكن النووي رحمه الله لم يرَ له ما كتبه شيخه التاج

82
الفزاري، فلما وقف على ذلك نقضه كلمة كلمة، وبالغ في الرد عليه، ونسبه إلى أنه خرق الإجماع في ذلك، وأطلق لسانه وقلمه.

قال القطب اليونيني: ولا شك أن الذي قاله النووي هو مذهب الشافعي وغيره، إلا أنه لم يعمل به في عصر من الأعصار، ولا قيل إن غنية خوضت في زمن من الأزمان بعد الصحابة والتابعين، ولولا القول بصحة ذلك لكان الناس كلهم بسبب شرائهم الجواري، واستيلادهم إياهم في محرَّم. وسائر عمل الناس قاطبة على ما أفتى به التاج، ولم يعمل أحد بما أفتى به الشيخ - يعني النووي -.

قال اليونيني: وما كان ينبغي له أن يرد عليه هذا الرد لعلمه أن بعض العلماء ذهب إليه، وقال: وحكى لي أن الفتاوى كانت إذا جاءت إلى الشيخ وعليها خط التاج يمنع من الكتابة فيها.

ويقول السخاوي: وذكر القطب اليونيني بعد ذلك كلاماً فيه بعض تحامل مع ما أسفله من أنه كانت مقاسده جميلة.

وقال التقي ابن قاضي شهبة(1):

ولما قدم النووي من بلده أحضروه ليشتغل عليه - يعني

(1) السخاوي 8. وابن قاضي شهبة: هو محمد بن أبي بكر بن أحمد بدر الدين الأسدي، مؤرخ وفقيه الشام في عصره، توفي سنة 874 هـ.

83
الفزار -... الخ إلى أن قال:
ثم إنه كانت بينهما وحشة كعادة النظراء. قال: وكان النووي أنقل للمذهب وأكثر محفوظاً منه.
أقول: وليس في قدرتي أن أدخل معترك الأبطال، ولكن الذي يظهر لي أن العلامة الفركاح الفزارى أراد أن يجتهد في مسألة عمَّ بلاؤها الناس، فاستخدم ملكته الفقهية وقردته على انتزاع الأدلة، ثم أصدر فتواها التي أراحت الناس وطمأنتهم، فكسب في ذلك مودتهم وإكبارهم، ولكن النووي يرحمه الله لا يلقي بالآ للكل هذه المظاهر الفارغة، فأي أمر أو عمل إما خلال وإما حرام ولكل دليل، فانتشار أمر بين الناس لا يجعله حلالاً إذ كان في الأصل حراماً، وعند صراحة الأدلة لا يحتاج الأمر أن يكون أفقه نساً وأذكي قريحة وأقوى مناظرة على حد قول الذبيحي، فالدليل القوي هو الفقه وهو الحجة عند المناظرة.


84
وصعد القطب اليونيني - وكان تلميذاً للشيخ النووي -
اعترف أن الذي قاله النووي هو مذهب الشافعي وغيره، واعترف
أن الصحابة والتابعين كان عملهم بما نقله النووي إذ قال
اليونيني: ولا تقبل أن غنيمة خمست في زمن من الأزمان بعد
الصحابية والتابعين، والمعنى أن الصحابة والتابعين كانوا
يخمسون كل غنيمة.

مع اعتراة بذلك كان يتحمل عليه ويقول: ما كان ينبغي
له أن يرد عليه هذارد لعلمه أن بعض العلماء ذهب إليه، لماذا
يا سيدي؟! أليس الحق أحق أن يتبع، ألم يرد الشافعي على
شيخه الإمام مالك، ألم يناظر شيخه محمد بن الحسن ويلزمه
الحجة!؟ وإذا كان يريد اليونيني أنه كان قاسيًا في رده، فما
أنصار الشيخ النووي يخرج عن حدود آداب البحث والمناظرة،
لما عرف عنه من سمو الخلق والبراءة من العنف والكيد، بل
اليونيني نفسه يقر أنه كانت مقاصده جميلة وأفعاله لله تعالى.
ولكن الشيخ الفركاح هو الذي اتسم بعنف اللهجة، بل بتدنيها
حين كان ينتقد كتاب "الروضة" للنووي بأتخذ الألفاظ، مع أن
عمدة فتاوى العلماء والشافعية في عصره وما بعده على الروضة
هذه.

وعلى كل حال فمن المؤكد أن نصوص الفقهاء عامة تؤيد
ما ذهب إليه النووي، بل مالنا ولذلك والله تعالى يقول:

85
واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن الله خمسه وللرسول ولذي القرنين والليثمين والمسكينة وأيب السبيل إن كنتم عمنشتم بإله وما أنزلنا على عبدينا يوم الفرقان يوم الفرقان يوم القيامة للجميع والله على كل شيء قدير
(1)

لم يستن سبحانه وتعالى الجواري من الغنمة، بل قال: من شيء، وهي مبالغة في الاستقصاء، ولا عبرة بحجج الفركح ولا بمن يقول بقوله، ولا بما يترتب على التحريم من قبل التخمس من مشاكل، ولا في عمل القرون المتطاولة.

(1) الآية (41) من سورة الأنفال.
الرباني الزاهي

عبادته:

يرى النووي رحمة الله أن أعظم العبادة تعلم العلم الذي يعرف به الحلال من الحرام بإخلاص، وقد مر في أول بحث علم النووي وفقهه بعض الأدلة على ذلك وبعض آراء النووي. وبحضروني في ذلك ما أرويه بمعناه: أن بعض تلاميذ محمد بن الحسن - أحد صاحبي أبي حنيفة رحمهما الله تعالى - سألوه أن يؤلف لهم كتاباً في الزهد، فقال: لقد ألفت لكم كتاب البيوع، وكأنه يقول: إن الزهد الحقيقي اجتناب ما حرم الله واجتناب أكل أموال الناس بالباطل.


(1) ترجمة النووي 36
(2) تحفة الطالبين 2 / أ
مقبلًا على الآخرة، من حال ترعرعه (1). وقال ابن العطار (2): ذكر لي صاحبنا أبو عبدالله محمد بن أبي الفتح البليعي الحنابل الفاضل نفع الله به في حياة الشيخ رحمه الله قال: كنت ليلة في أواخر الليل بجامع دمشق، والشيخ واقف يصلي إلى سارية في ظلمة وهو يردد قوله تعالى: {وَقَوْهُمُ الْمُمْتَلَأُونَ} مرارًا بحزن وخشوع، حتى حصل عندي من ذلك شيء الله أعلم به.

وفي البداية والنتيجة لابن كثير (3): "كان يصوم الدهر".

وقال اليافعي (4): كان كثير السهر في العبادة والتلاوة والتصنيف.

وحده وورعه:

قال ابن العطار (5): قال لي شيخنا محمد بن عبد القادر الأنصاري: لو أدرك القشري صاحب الرسالة شيخكم - يعني النووي - وشيخه - يعني أبا إسحاق إبراهيم بن عثمان المغربي - لما قدم عليهما في ذكره لمشاهدتهما - يعني الرسالة - أبداً، لما

_________________________

(1) ترجمة النووي للسخاوي (12).
(2) تحقفة الطالبين 9 / ب. 279/12.
(3) تحقفة الطالبين 183.
(4) مرآة الجنان 4 / ب.
(5) تحقفة الطالبين 4 / ب.
جمع فيهما من العلم والعمل والزهد والورع، والنطق بالحكمة وغير ذلك.

ويقول الذهبي في العبّار (1):

وكان مع تبحر في العلم، وسعة معرفته بالحديث والفقه واللغة وغير ذلك، بما قد سارت به الركبان، رأساً في الزهد، قدوة في الورع.

وقال أيضاً في سير النبلاء (2):

كان عديم الميرة والرفاهية والتنعم، مع التقوى والقناعة والورع الشخين، والمراقبة لله في السر والعلانة، وترك رعونات النفس من ثياب حسنة، وماكّل طيب، وتجمل في هيئة...

وذكر العلامة شهيد الدين إسماعيل بن المعلم الحنفي (3) قال: عذلته في عدم دخول الحمام، وتضييق عيشه في أكلاه ولباسه وجميع أحواله، وقالت له: أخشى عليك مرضاً يعطلك عن أشياء أفضل مما تقصده، قال: فقال لي: إن فلانا صام وعَبَد الله تعالى حتى أخضر عظمه، قال: فعرفت أنه ليس له

1) الجزء الخامس 312.
2) السخاري 39.
3) هو إسماعيل بن عثمان بن عبدالله بن عبد الكريم، أبو الفداء، شيخ الحنفية في وفته، توفي سنة 714 هـ.

89
غرض في المقام في دارنا ولا التفادات لما نحن فيه.)
ورعه رضي الله عنه ورع من يشهد يوم الحساب بعين يقينه وعظم إيمانه، أكثر مما لو كان يشهده بحاسة نظره، لذلك كان يردد في قيامه في الليل قوله تعالى: «وقفون فيهم تثومون» بخشوع وخوف كما مر معنا في عبادته، ولذلك وصف الزهبي ورعه بأنه ورع نخيل، ويريد أنه ورع شديد قل من يستطيع أن يقوم به.
فمن ورعه أنه كان لا يأكل من فاكهة دمشق كما اتفق على ذلك من أرخ له(١)، يقول ابن العطار(٢): وسألته عن ذلك فقال: إنها كثيرة الأوقاف والأملاك لمن هو تحت الحجر شرعاً، ولا يجوز التصرف في ذلك إلا على وجه الغنضة والمصلحة، والغبطة للريمة والمحجور عليه، والناس لا يفعلونها إلا على جزء من ألف جزء من الثمرة للمالك، فكيف تطيب نفس؟.
ومن ورعه أنه كان لا يتناول من جهة ما مالاً أو طعاماً ولا يقبل من أحد شيئاً(٣)، حتى ما يفرض له، وفي كلام الزهبي: أنه ترك جميع الجهات الدنيا، فلم يكن يتناول من جهة من.

(١) السخاوي ١٣٩
(٢) كابن كثير وابن العماد وابن العطار والذهبي والسخاوي
(٣) تحققة الطالبين ٤/ ب.
(٤) الشذرات ٨/ ٣٩٧
الجهات درهماً فرداً، وأنه ما أخذ للأشرفية فيما بلغني جامكية،
بل اشترى بها كتبًا ووقفها(1).

وقال ابن دحماق(2): إنه كان يجمع جامكيته عند الناظر،
وكلما صار له حق سنة، اشترى له به ملكاً، ويوققه على دار
الحديث، أو كتبًا فيوقفها على خزائتها. ويظهر أن هذا أول أمره
كان يتقاضى اليسير فيشتري الكتب أو العقار فيوقفه، ثم امتع
عن أخذ شيء البطة، وهذا يفسر هذا الاختلاف بالأخبار. وقال
قاضي صفد العثماني(3): إنه لم يأخذ معلوماً قط، قال: وباشر
مشيخة دار الحديث لما تعين عليه. فلم يتناول شيئاً من
معلوماتها. وقال غيرهم: إنه لم يتناول منها شيئاً إلا سنة أو
ستين، وفي العبر للذهبي(4): ولي دار الحديث، وكان لا يتناول
من معلوماتها شيئاً بل يقع بالقليل مما يبعث به إليه أبوه وكان لا
يأخذ من أحد شيئاً ولا يقبل إلا ممن تحقق دينه ومعرفته، ولا له
به علاقة من إقراء وانتفاع به، قاصداً الخروج من حديث إهداء
القوس(5) والجزاء في الدار الآخرة.

1( السخاوي37).
2( هو إبراهيم بن محمد بدء بن دحماق القاهري، مؤرخ الديار
المصرية، توفي سنة 809 هـ).
3( السخاوي37).
4( ج5/13/313.)
5( حديث القوس: روي عن جماعة من الصحابة، والحديث كما أخرجه= 91
وربما كان يرى نشر العلم متعيناً عليه، مع قناعة نفسه وصبرها، والأمور المتعينة لا يجوز الجزاء عليها في الدار الدنيا، بل جزاؤها في الدار الآخرة شرعاً، كالقرض الجار إلى منفعة فإنها حرام باتفاق العلماء.

يقول ابن العطار: و كنت جالساً بين يديه قبل انتقاله بشهرين أو نحوهما، وإذا بفقير قد دخل عليه وقال: الشيخ، فلان من بلاد صرخد يسلم عليك، وأرسل معي هذا الإبريق لك. فقبله الشيخ وأمرني بوضعه في بيت حوائجه، فتعجبت منه لقبوله. فشعر بتعجبي، فقال: أرسل إلي بعض القراء زربولا، وهذا إبريق، فهذه آلة السفر(1).

وقال الذهبي(2): وكان لا يقبل من أحد شيئاً إلا في النادر ممن لا يستغل عليه: أهدي له فبدي إبريقاً فقبله، وعزم عليه الشيخ برهان الدين الأسكندراني أن يفطر عنده، فقال: أحضر الطعام إلى هنا، ونفطر جملة، فأكل من ذلك، وكان لونين.

البيهقي في سنته من طريق عطية بن قيس الكلابي قال: علمٌ أبي بن كعب رضي الله عنه رجلاً القرآن، فأتيه اليمن، فأهدي له قوساً. فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال إن أخذته فخذ بها قوساً من النار، والحديث - كما قال البيهقي - منقطع.

(1) تجعة الطابين 12 / أ.
(2) تذكرة الحفاظ 4 / 1473.

٩٦
والغريب أنه مع هذا الزهد والورع، والاكتفاء بالأقل، كان يقرر جواز أكل لذذ الأطعمة وأنه لا ينافي الزهد، وذلك بتعليمه على بعض الحديث في صحيح مسلم (1): كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل» فقال النووي: وفيه جواز كل (2) لذذ الأطعمة والطيبات من الرزق، وأن ذلك لا ينافي الزهد والمراقبة، لا سيما إذا حصل اتفاقاً. ولعل النووي لا يتحقق الحلال فيتروع.

رفقه بالناس في عرصات القيامة:

يقول ابن العطار تلميذه (3): وقال لي جماعة من أقاربه وأصحابه بنوئ: إنهم سألوه يوماً آلا يساهم في عرصات القيامة، فقال لهم: إن كان ثمَّ جاه، والله لا دخلت الجنة وواحد ممن أعرفه ورائي، ولا أدخلها إلا بعدهم!! فرحمه الله ورضي عنه.

يقول ابن العطار:

لقد جمعت هذه الحكاية من الأدب مع الله عز وجل، ومن الكرم ما لا يخفى على متأمل فطن.

(1) شرح مسلم 10/77.
(2) الأصل: كل، ولعلها: أكل.
(3) تحفة الطلابين 42/1 ب.
كرامات النووي:

الكرامات: جمع كرامة، وهي الأمر الخارق للعادة لا على وجه التحدي، وهي عند أهل السنة حق، ولا يكره منكرها. ولا يجوز وقوعها المعتزلة جميعاً، ومن أهل السنة الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني وهو - كما يقول التاج السبكي (1)- من أقطان أهل السنة والجماعة، ولكن أبا إسحاق لا ينكر الكرامة مطلقاً، ولكنه يرى أن الكرامات لا تبلغ مبلغ خرق العادة، قال (2): وكل ما جاز تقديره معجزة لبني لا يجوز ظهور مثله كرامة لولي الله.

وقال: وإنما بالعُل الكرامات إجابة دعوة، أو موافاة ماء في بادية في غير موقع المياه، أو ماضاها ذلك، مما ينحث عن خرق العادة.

وليس معنى قبول الرأي بإمكان وجودها قبول كل ما ينحاله الوعاظ والقاصصون من كرامات. فكلما يروى منها أو من غيرها خاطع لما خضع إليه الحديث النبوي من الصحة والضعف والوضع وأكثر ما يروى من ذلك منقطع أو بعضه، هذا إذا سكتنا عن جرح الرواة أو تعديلهم.

(1) الطبقات الكبرى ٣۱۰/٢.
(2) المرجع السابق.

٩٤
وبعد: فإن لم يكن النووي وأمثاله أولياء الله فمن يكون الولي!! والله يقول: { آللآ إِنَّكَ أُولُوا الْقَلْبِ إِلَيْهِ حَفُوظٌ} وَلَا هُمْ يَضُروُّنَّكَ مَآمِثَةً وَحَسَّأَتَ الْمَهْدُ. { } ولذلك لا يستغرب أن تكون له كرامات كثيرة، يقول الذهبي في سير النبلاء: كأن يؤثر عنه كرامات وأحوال.

وقال التقي محمد بن اللحسن اللخمي: { إنه ظهرت له الكرامات الكثير من سماع الهاتف، ومن انفتاح الباب المقفل بالأقاليم وردته كما كان، واشتقاق الحائط في الليل، وخروج شخص له منه، حسن الصورة، وكلامه معه في مصالح الدارين، واجتماعه بالأولياء والأصفياء ومكاشفته هو للواحد، بأحوال لا يعلمها إلا الله، ثم صاحبها، وإعلامه بموته وهو بدمشق. ومن قوة نفسه ملازمته لحيّة عظيمة في بيته بالرواحية، ويراها كل قليل تخرج إليه، ويضع لها لباباً تأكله، حتى إن بعضهم رآه في غفلة وهو يطعمها الباب، فقال له يا سيدي: ما هذه؟ وخفى، فقال: هذه خلق من خلق الله لا يضر ولا ينفسح، أسألك والله أن تكتب ما

(1) يونس 62 - 63.
(2) السخاوي 34.
(3) السخاوي 34 - 35، واللخمي هو: محمد بن الحسن بن عيسي اللخمي تقي الدين، عالم محدث، توفي سنة 738 هـ.
رأيت ولا تحدث به أحداً. فرحمه الله، لقد كان من الذين بمكان الرأس من الجسد، ظهر له العلم فشمر إليه، ونظر إلى الخيرات فأفرغته عليه».

"إذا تكلم افتتح كلامه بالحمد لله والثناء عليه، وإذا ذكر النبي ﷺ رفع صوته بالصلاة عليه".

وكان إذا ذكر الصالحين ذكرهم بتعظيم وتوقير واحترام، وسّوّدهم، وذكر مناقبهم وكراماتهم».

قلت: زاد اللخمي: واكتسب من أحوالهم. إهد.

وهذه بعض كراماته مفصلة:

يقول ابن العطار (1):

ذكر لى شيخنا العارف، القدوة المسلك، ولي الدين أبو الحسن علي، المقيم بجامع بيت لهيا خارج دمشق رحمة الله، قال: كنت مريضاً بمرض يسمى النقرس في رجلِي، فعادني الشيخ محمي الدين قدس الله روحه، فلما جلس عندي شرع يتكلم في الصبر، قال: فكلما تكلم جعل الألم يذهب قليلاً قليلاً، فلم يزل يتكلم فيه حتى زال كأن لم يكن قط. قال: كنت قبل ذلك لم أنم الليل كله من الألم، فعرفت أن زوال الألم منبركته رحمة الله.

(1) تحفة الطالبين 9 / 10 / 96
ومن كراماته ما حكاه ابن الوردي (1) أيضاً في ترجمة شيخه
الشرف البارزي: مما حكاه لي في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة
وسبعمائة: أنه رأى النووي في المنام، قال: فقلت له: ما تختار
في صوم الدهر؟ فقال: فيه اثنا عشر قولاً للعلماء، قال:
فلما استيقظت وجدت الأمر كذلك، يعني بعد السعي،
فإني لم أر الأقوال مجموعة في كتاب واحد. وعده ابن الوردي
من كرامات شيخه أيضاً.
ووجدت هذا المنام بخط شيخي في بعض أجزاء تذكرته،
وعبارته: قال الشرف البارزي (2): رأيت النووي في النوم، فسألته
عن صوم الدهر، فقال: فيه اثنا عشر قولاً للعلماء، قال: فاقتلت
حولاً حتى اجتمعت لي. ولم أجدها مجموعة في كتاب وهي هذه:
صوم الدهر في حق من لم ينذر ولم يضرر به، فيه أربعة
أقوال: الاستحباب، وهو اختيار أكثر الشافعية، والكراهة وهو
اختيار البغوي، والإباحة وهو نص الشافعي، والتحريم، وهو
قول جماعة من السلف (3).

(1) السخاوي 35 وابن الوردي هو عمر بن مظفر بن عمر أبو حفص
زين الدين، شاعر أديب مؤرخ، توفي سنة 749 هـ.
(2) هو هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم أبو القاسم شرف الدين البارزي،
من أكابر الفقهاء، توفي سنة 738 هـ.
(3) أقول: والحديث المتفق عليه، والمروي عن عبدالله بن عمرو قال:
وفي حق من نذر ولم يتضرر به خمسة أقوال: الواجب، وهو اختيار أكثر الشافعية، والأربعة المتقدمة للقائلين.
وفي حق من يتضرر به بأن تفوته السنن أو الاجتماع بالأهل ثلاثة أقوال: التحريم، والكراهة، والإباحة. انتهى ما قرأته بخط شيخنا.

ومنها ما نقله ابن العطار (1) أيضاً:
ذكر لي صاحبنا الشيخ أبو العباس أحمد بن الشيخ أبي عبدالله محمد بن الحسن بن سالم الشافعي - جعل الله في بقيته البركة - غير مرة، قال: ذكر لي الشيخ الصالح الصدوق المعمر أبو القاسم ابن عمير المزي - وكان من الآخيار - أنه رأى فيما يرى النائم بالمزة رايات كثيرة، قال: وسمعت نوبة تضرب، فتعجبت من ذلك، فقلت من هذا؟ فقيل لي الليلة قطب (2) يحيي النواوي فاستيقظت من منامي، ولم أكن أعرف الشيخ، ولا سمعت به قبل ذلك، فدخل المدينة - يعني دمشق - في حاجة، قال: فذكرت ذلك لشخص، فقال: هو شيخ دار الحديث الأشرفية، وهو الآن جالس فيها لميعادها، فاستدلالت عليها

= قال رسول الله ﷺ: «لا صام من صام الأبد».

(1) تحفة الطالبين 47 / ب.
(2) قطب: أي جعلوه قطبًا، ومن معاني القطب: سيد القوم الذي يدور عليه أمرهم. والقطبية: وظيفة صوفية علياً لأكبر أولياء الوقت.
ودخلتها فوجدها جالساً فيها، وحوله جماعة، فوقع بصريه علي، فنهض إلى جهتي، وترك الجماعة، ومشي إلى طرف إيوانها، ولم يتركني أكلمه، وقال: اكتم ما معك، ولا تحدث به أحداً، ثم رفع إلى موضعه، ولم يزد على ذلك ولم أكن رأيته قبلها، ولم أجمع له بعدها!!

ومن كراماته(1): ما حكي الزين عمر بن الوردي في ترجمة
الشمس ابن النقيب(2) من تاريخه أنه قال:

دخلت وأنا صبي على النووي رحمه الله - يعني في أيام
اشتغاله عليه - فقال لي: أهلاً بقاضي القضاة، قال: فنظرت فلم
أجد عنه أحداً غري، فقال لي: اجلس يا مدرس الشامية.
وهذا من جملة كشف الشيخ رحمه الله، فإنه وليهما معاً، وكانت
حكاية ابن النقيب لذلك وهو بحلب قبل ولايته الشامية، وكان
يظن أنه يلي قضاء الشام فما ولي إلا حمص ثم طرابلس ثم حلب
ثم رفع إلى دمشق، فولي الشامية.

ومن غرائب ما وقع معه رؤيته إبليس في زي شيخ حسن
الصورة. قال ابن العطار(3):

______________________________
(1) السخاوي 35.
(2) هو محمد بن أبي بكر بن إبراهيم شمس الدين بن النقيب دمشقي من
قضاة الشافعية، توفي سنة 745 هـ.
(3) تحفة الطالبين 5 / أ.
ذكر لي رحمه الله قال: كنت مريضاً بالمدرسة الرواحية، فيننا أنا في بعض الليالي في الصفة الشرقية منها، والدي وإخوتي وجماعة من أقاربي نائمون إلى جانبي، إذ نشدني الله واعفاني من ألمي، فاشتاقت نفسى إلى الذكر، فجعلت أسبح، فيننا أنا كذلك بين الجهير والإسرار إذا شيخ حسن الصورة جميل المنظر يتوضأ على حافة البركة، وقت نصف الليل أو قريب منه، فلما فرغ من وضوئه أتاني وقال لي: يا ولدي لا تذكر الله تعالى وتهوه على والدك وإخوتك وأهلك ومن في هذه المدرسة، فقلت: يا شيخ، من أنت؟ قال: أنا ناصح لك، ودعني أكون من كنت، فوقع في نفسي أنه إبليس، فقلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ورفعت صوتي بالتسبيح، فأعرض ومشى إلى ناحية باب المدرسة، فانتبه والدي والجماعة على صوتي، فقتم إلى باب المدرسة، فوجدته مفتوحاً، وفتشتها فلم أجد فيها أحداً غير من كان فيها، فقال لي والدي: يا حبي ما خبرك؟ فأخبرته الخبر فجعلوا يتعجبون، وقعدنا كلنا نسبح ونذكر.

وقال السخاوي (1): وكذا اشتهر أن الخضر كان يجتمع

بـه.

أقول: وهذا ممكن إن قلنا إنه لم يزل حياً، وكثير من العلماء وفيهم البخاري - يرون أنه مات لقوله تعالى: {وَمَا

(1) ترجمة النوري 33.
جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإين يبت فهم المخلدون(1).

واستدل البخاري في الحديث الذي أخرجه وأخرجه مسلم أيضاً عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذلك قبل موته بشهر: "ما من نفس منفوسة اليوم، تأتي عليها مائة سنة، وهي حية يومئذ".

هذا بعض ما روى عن النووي من كرامات وهناك كثير غيرها والله أعلم بما صح منها وما لم يصح، مع العلم أن أكثر رواة ما قصصناه وصفوا بالعلم والصلاح والتقوى والصدق.

شيخه في الطريق:

إن من صفات النووي جُبِه للصالحين والإشادة بذكريهم ومجالستهم والانتفاع بسلوكهم، ولو كان أعلم منهم بكثير، ذلك أنه يدرك أن الانصراف للعلم وحده ربما أورث جفوة في القلب، وأورث عجباً وكثيراً ومراة، فلا بد للعالم حينئذ من أن يقبل هذا القلب بكثرة العبادة، والجلوس إلى الصالحين واستعامة الرفاق منهم والانتفاع بحالهم قبل قالهم، وقديماً قال سفيان بن عيبية شيخ الشيوخ في الحديث: "عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة« وقال محمد بن يونس: "ما رأيت للقلب أنفع من ذكر الصالحين".

(1) الأنباء 34.

101
ويقول ابن العطار عن شيخه(1): وكان رحمه الله إذا ذكر الصالحين ذكرهم بتعظيم وتقدير واحترام، وسواء منهم وذكر مناقبهم وكراماتهم.

ولم يكن للنووي طريق من هذه الطرق الشائعة، كثير منها لم يكن في زمنه، وطريقه في العبادة والذكر طريق المصطفى عليه الصلاة وسلام، لذلك ألف كتابه الأذكار، فالذكر الصحيح المأثور أقرب قبولاً ومثوبة عند الله. وإذا لم يكن له طريق فإن له شيخاً صالحاً مسلكًا يقصد إليه ويتنفع بمجالسته وتذكيره، ويعتهد قلبه وعبادته، وشيخه هذا هو الشيخ ياسين المراكشي، الذي له الفضل الأول في اكتشافه يوم صدقته فراسته، فوصى به آباه ومعلميه، وما زال يتعهد حتى أنى به إلى دمشق بصحبة والده وقد قدمنا ذلك، والنووي لم ينس له هذا الفضل، فكان يخرج إليه، ويتأدب معه، ويرجو بركته، ويستشيره في أموره.

وقد وصف الذهباني في تاريخ الإسلام الشيخ ياسين بن عبداللطيف(2) - والأكثرون على أنه ابن يوسف - المراكشي بأنه: المقري الحجام، الأسود، الصالح، كان له دكان بظهار باب الجابية، وكان صاحب كشف وكرامات.

(1) تحقية الطالبين 9/ أ
(2) ترجمة النووي للسخاوي 10/ 102
ويرى محمد بن عبد القادر الأنصاري القاضي: أن يصح أن يكون من رجال الرسالة، بل قدمه عليهم كما مر في "زهر النووي وورعه". وقد حج أكثر من عشرين مرة. وبلغ الثمانين، ووصفه اللخمي: بالعلم بالقراءات السبع.

يقول السخاوي: لكن لم يتبين عن أخذها، وليس له ترجمة في كتب من ترجم للقراء، وله الآخرة أشغال قبل القرآن ثم غلب عليه التصوف، فذكره الناس بولايته وزهده، ولم يذكره بعده وقراءته. ومن ترجم له ذكر أن النووي أخذ عنه الطريق، ولم يذكر أحد ما هو طريقه، فالسبكي يقول: إن شيخه في الطريق الشيخ ياسين المراكشي، وله له ذكرًا من السنة يجمع عليها مريديه. وكما قدمت لم يعرف للشيخ طريق غير ما ورد في السنة.

١٠٣
وصف الله تعالى المؤمنين المؤمنين بأنهم خير أمة، ولم يختر لهم من صفات الخيرية إلا تميزهم بصفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال تعالى: "كنتم خير أمة أخرجتم للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتمثالون باليهود"، ولعله تعالى إنما قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن منفعته تجاوز صاحبها إلى غيره، وصفة الإيمان بالله تنفع صاحبها أولاً، والله أعلم.

وجعل من علامة ولاية المؤمنين بعضهم لبعض أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فقال تعالى: "المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر". ولعن اليهود والكافرين بنص القرآن - ومن أبرز الصفات التي كانت سبباً للفعلان أنهم لا يتناهون عن المنكر - في قوله تعالى: "لئن الذين كفروا من بني إسرائيل على يسائى دوابد وعيسى ابن مريم ذلذ يعظوا وحكاوا بصائركم لا يتناهون عن منكر فقلوا ليس ما حكمائنا بفعلون". 104
ومقياس زيادة إيمان المؤمن هو أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وحين تساهل المسلمون بهذا الأمر ضعف فيهم وازع الدين ومن ثم ضعفوا واستكانوا.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية على الناس جميعاً، فأي جماعة ارتكب فيهم المنكر فلم ينهوا عنه فكلهم آثمون.

وقد كان السلف رحمهم الله لا يتركون هذا الأمر ولو نالهم بسبب الموت أو العذاب الشديد، ومثل ذلك الأئمة وأتباعهم، بل كان أكثر علماء كل العصور لا يضكون بالأمر بالمعروف، ولا يسكتون عن النبي عن المنكر.

وما علمنا في القرن السابع أحداً من علمائه بلغ ما بلغه النووي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هو في ذلك نادر في كل قرن، يقول الذهبي: كان عديم المثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد أجمع التمجمون على أنه كان - رحمه الله - لا يبالي ففي أمره ونهيه لومة لائم، بل لا يبالي الإهانة والموت، ولا يكبر عنده أحد من النصيحة حتى العلماء والأمراء والملوك والجبابرة، وله في ذلك قصص تذهل الألباب وسنذكر بعضها، عسى أن ينفع بها هواة الوقف بباب الأمراء ممن يزين لهم أو يُقر ما يجعلهم، ولو كان الظلم الصريح أو المنكر القبيح.
مواجهة الملوك وإنكاره عليهم:

يقول ابن العطار (1): وكان - أي النووي - مواجهة لملوك الجبالية بالإنكار، لا يأخذه في الله لومة لائم، وكان إذا عجز عن المواجهة كتب الرسائل، وتوصيل إلى إبلاغها. ويقول الذهبي (2): وكان يواجه الملوك والظلمة بالإنكار، ويكتب إليهم ويخروفهم بالله تعالى. ومن أشهر قضاياه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقوفه في وجه الملك الظهر ببرس البندقداري (3) في قضية الحوطة على الغوطة.

قال القطب اليووني (4): إنه - أي النووي - وافق الظهر غير مرة بدأ العدل بسبب الحوطة على بسانين دمشق وغير ذلك.

وقال العماد ابن كثير (5): إنه قام على الظهر في دار العدل في قضية الغوطة لما أرادوا وضع الأملاك على بسانينها، فرد

(1) تهفة الطالبين 13 / أ.
(2) تذكرة الحفاظ 4/1473.
(3) وهو ركن الدين أبو الفتح ببرس البندقداري الصالحي النجمي الأيوبي التركي، صاحب مصر والشام، مات بدمشق في العشر الأخير من المحرم سنة 276 هـ.
(4) تاريخ النووي للسخاوي 45.
(5) المرجع السابق.
عليهم ذلك، ووقى الله شرها بعد أن غضب السلطان، وأراد البطش به، ثم بعد ذلك أحبه وعظمه، حتى كان يقول: أنا أفزع منه.

فما هي قضية الحوطة؟ يقول جعفر الأدفو في البدر السافر:

إن السلطان الظاهر بيبرس لما ورد دمشق بعد قتال التتار ونزوحهم عن البلاد، ولِّه وكالة بيت المال شخصًا من الحنفية، فقال: إن هذه الأملاك التي بدمشق كان التتار قد استولوا عليها، فتملكوها على مقتضى مذهب أبي حنيفة رحمه الله، فوضع السلطان يده عليها، فقام جماعة من أهل العلم وكان الشيخ فيهم.

ويقول السخاوي: بل هو أعظمهم، قال: فكلم السلطان في ذلك كلامًا فيه غلظة، فظن السلطان أن له مناصب يعزله عنها، فقال: ما له.

وهذه صورة من مواجهته للملك الظاهر:

فقد طلب الملك الظاهر أن توقع فتياً من قبل العلماء فوقعها كثير من فقهاء الشام، بعضهم خوفًا وبعضهم طمعًا، وامتنع خلق من العلماء، بل أفتوا بعدم الجواز فعرضوا على السيف وقتلوها، ثم طلب من النووي أن يوقع فماذا كان؟ دونك القصة كما وجدتها آخر كتاب ترجمة النووي للسخاوي بزيادة محمود حسن ربيع (1).

محمد حسن ربيع (1) السخاوي 80.

107
لما خرج الملك الظاهر لقتال التتار بالشام طلب فتاوى العلماء بأنه يجوز أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو، فكتب له فقهاء الشام بذلك، وقتل خلقاً من العلماء كثيراً بسبب إفتائهم له بعدم الجواز، فقال: هل بقي أحد؟ فقالوا: نعم، بقي الشيخ محبي الدين النووي، فطلبه فقال: اكتب خطك بالفقهاء فامتنع وقال: لا، فقال: ما سبب امتناعك؟ فقال: أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بنقدار، وليس لك مال، ثم من الله عليك وجعلك ملكاً، وسمعت أن عندك ألف مملوك كلهم عنده حياصة من ذهب، وعنده مائتي جارية، لكل جارية حق من الحلي، فإذا أنفقت ذلك كله، وبيت مماليكك بالبنود الصوف بدلاً عن الحياصات الذهب وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي، ولم يبق في بيت المال شيء من نقد أو متاع أو أرض، أفتيتك بأخذ المال من الرعية، وإنما يستعان على الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى، وإتباع آثار نبيه.

فغضب السلطان من كلامه، وقال: اخرج من بلدي - يعني دمشق، فقال: السمع والطاعة، وخرج إلى نوى، فقيل للملك: ما سبب عدم قتلك له، فقال: كلما أردت قتله أرى على عاته سبَعَين يرددان افتراضي فأمتنع من ذلك. أي إن خوته منه كان بهذه المثابة، وكثرما ما صرح أنه يخافه، وإنما هذه هيبة من لا يخاف في الله لومة لائم.

108
ولما رأى النووي أن المواجهة لم تجد نفعاً عمداً إلى الكتاب إليه بأسلوب فيه ترغيب وترهيب، أسلوب الناصح الذي يخشى عليه عاقبة أمره، ويخشى ضياع حقوق الناس، فيكون بذلك مسؤولاً أمام الله إن قصر بذلك، كتب إليه ووقع معه بعض العلماء ممن لا يهابون - في سبيل الله - أحداً إلا الله. وهاك ما قاله علاء الدين بن العطار تلميذه (1):

وهما كتبه لما احتيط على أملاك دمشق حرسها الله، بعد إنكاره مواجهة للسلطان الظاهر وعدم إفادته وقبوله:

«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: فَذَكَّرْ فَإِنَّ الَّذِيْكَ نَفْعُهُ (المؤمر)، وقال تعالى: وَإِذْ أَخَذَ الَّذِينَ حَمَّلُوا الْكِتَابَ لِيَبْنُوا لَهُمْ وُجُودًا وَلَا ظَلَمًا (2)، وقال تعالى: وَتَأْوِيْلُ مَعَهُ الْيَوْمِ الْمَبْطُونِ (3)، وقال أوجب الله على المكلفين نصيحة السلطان أعز الله أنصاره، ونصيحة عامة المسلمين، ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: الدين النصيحة: الله ولكتابه ورسوله، وأئمة المسلمين وأعامتهم ومن نصيحة السلطان - وفقه الله لطاعته، وتولاه بكرامته - أن يُنهى إليه الأحكام إذا جرت على

(1) تحفة الطالبين ورقة 16 - 17.
(2) الذريات 55.
(3) المائدة 2.
خلاف قواعد الإسلام، وأوجب الله تعالى الشفقة على الرعية والاهتمام بالضعفاء وإزالة الضرر عنهم، قال الله تعالى: { وأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ }، وفي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «من كشف عن مسلم كُربة من كُرب الدنيا كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»، وقال ﷺ: «الله من ولي من أمر أبي من أمر أنتشيءا فرقت بهم فارفق به ومن شق عليهم فاشق عليه» وقال ﷺ: «كلكم راع ومسؤول عن رعيته» وقال ﷺ: «إن المقطستين على منابر من نور عن يمين الرحمن، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا». وقد أنعم الله تعالى علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان - أعز الله أنصاره - فقد أقامه الله لنصرة الدين، والذب عن المسلمين، وأذل له الأعداء من جميع الطوائف، وفتح عليه الفتوحات المشهورة في المدة البسيرة، وأوقع الرعب منه في قلوب أعداء الدين، وسائر المارقين ومهد له البلاد والعباد، وقمع بسبه أهل الزيغ والفساد، وأمده بالإعانة واللطف والسعادة، فله الحمد على هذه النعم المتظاهرة والخيرات المتكررة، ونسأل الله الكريم دوامها له وللمسلمين، وزيادتها في خير وعافية آمين.

(1) الحجر 88
وقد أوجب الله شكر نعمة، ووعد الزيادة للشاكرين، فقال تعالى: {لَئِنْ شَكَرُوكُمُ لَأُزِيدُنَّكُمْ}. وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواع من الضرر، لا يمكن التعبير عنها، وطلب منهم إثبات لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين، بل من في يده شيء فهو ملكه، لا يحل الاعتراض عليه، ولا يكلف بإثباته.

وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع، ويوصي نوابه به، فهو أولى من عمل به. والمسؤول إطلاق الناس من هذه الحوطة والإفراج عن جميعهم، فأطلقهم أطلقك الله من كل مكروه، فهم ضعفاء، وفيهم الأيتام والأرامل والمساكين والضعيفة والصالحون، وبهم تنصرف ونعاون وتزويق، وهم سكان الشام المبارك جيران الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وسكان ديارهم، فلهم حرمات من جهات. ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من الشدائد لااشتد حزنه عليهم، واطلقهم في الحال ولم يؤخرهم، ولكن لا تنهى الأمور إليه على وجهها.

فبلاه أغث المسلمون بِغَفَرُكَ اللَّهُ، وارفق بهم يرفق الله بك، وعجل لهم الأفراح قبل وقوع الأمطار وتلف غلالهم، فإن أكثرهم ورثوا هذه الأملاك من أسلافهم، ولا يمكنهم تحصيله.

(1) إبراهيم ٧.
كتب شراء وقد نهبت كتبهم. وإذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله ﷺ لمن رفق بأمته، ونصره على أعدائه، فقد قال الله تعالى: "فإن تصرفاً الله يصرفكم" (1) ويتوفر له من رعيته الدعوات، وتظهر في مملكته البركات، ويبارك له في جميع ما يقصده من الخيرات، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ قال:

"من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة" فسأل الله الكريم أن يوفق السلطان للسنّ الحسنة التي يُذكر بها إلى يوم القيامة، ويحميه من السن السريعة. فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان، ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه الله فيها القبول، والسلام عليكم ورحمة الله، الحمد لله رب العالمين، وصلواته وسلمه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

وعلم النووي رحمه الله أن بعض من زينوا للسلطان سلب الغوطة من أصحابها الفلاحين تهدده وأوعده بأن يخلعه من مشيخة دار الحديث، فكتب النووي إليه:

"يقول ابن الطارع" (2):

وكان من قصة ابن النجار أنه سعى في إحداث أمور على المسلمين باطلة، فقام الشيخ قدس الله روحه - مع جماعة من

(1) سورة محمد 7.
(2) تحققة الطالبين 45 - 47.
علماء المسلمين، فأزالوها بإذن الله تعالى، ونصر الله الحق وأهله فغضب لذلك كراهيته مصلحة المسلمين، ونصيحة الدين، وبعث إلى الشيخ يهدده، ويقول: أنت الذي تُحزَّب العلماء على هذا.

فكتب إليه الشيخ - قدس الله روحه - كتاباً هذه صورته:

"بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، من يحيى النووي:

أعلم أيها المقصر في التأهب لمعاده، التارك مصلحة نفسه في تهيئة جهازه (2) له وذاده، أني كنت لا أعلم كراهتك لنصرة الدين ونصيحة السلطان والمسلمين، حملًا مني لك على ما هو شأن المؤمنين من إحسان الظن بجميع الموحدين، وربما كنت أسمع في بعض الأحيان من يذكرك ببغض المسلمين، فأنكر عليه بلساني وينبدي لأنها غيبة لا أعلم صحتها. ولم أزل على هذا الحال إلى هذه الأيام، فجرى ما جرى من قول قائل للسلطان - وفقه الله الكريم للخيرات - إن هذه البساتين يحل انتزاعها من أهلها عند بعض العلماء، وهذا من الافتراء الصريح والكذب القبيح، فوجب علي وعلى جميع من علم هذا من العلماء أن يبين بطلان هذه المقالة، ودحض هذه الشناعة، وأنها خلاف (1) في مصورة التحفة: نظر للحق وأهله.

(2) في السخاوي 50: جهاده.
إجماع المسلمين وأنها لا يقول بها أحد من أئمة الدين، وأن ينهوا ذلك إلى سلطان المسلمين، فإنه يجب على الناس نصيحته لقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «الدين النصيحة: الله وكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعمامتهم». وإمام المسلمين في هذا العصر هو السلطان وفقه الله تعالى لطاعته وتولاه بكرامته، وقد شاع بين الفصح والعام أن السلطان كثير الاعتناء بالشرع، ومحافظ(1) على العمل به، وأنه بنى المدارس لطوائف العلماء ورتب القضاة من المذاهب الأربعة، وأمر بالجلوس في دار العدل لإقامة الشرع، وغير ذلك مما هو معروف من اعتناء السلطان - عز الله أنصاره - بالشرع، وأنه إذا طلب طالب منه العمل بالشرع أمر بذلك ولم يخالفه، فلما افترى هذا القائل في أمر البساتين - وقع في ذلك - فلم يخالفه. فلما افترى هذا القائل في أمر البساتين - وقع في ذلك - فلم يخالفه. ودلّه على السلطان، وأظهر أن انتزاعها جائز عند بعض العلماء، وغش السلطان في ذلك، وبلغ ذلك علماء البلد، وجب عليهم نصيحة السلطان، وتبيين الأمر له على وجهه، وأن هذا خلاف إجماع المسلمين، فإنه يجب عليهم نصيحة الدين والسلطان، وعامة المسلمين، فوقعهم الله تعالى للاتفاق على كتاب كتاب يتضمن ما ذكرته على جهة النصيحة للدين والسلطان والمسلمين، ولم يذكروا فيه أحداً بعية، بل

(1) السحاوي 50: ومحافظ.
قالوا: من زعم جواز انتزاعها فقد كذب، وكتب علماء المذاهب الأربعة خطوطهم بذلك، لما يجب عليهم من النصيحة المذكورة، واتفقوا على تبليغها ولي الأمر - آدم الله نعه عليه - لينصحوه، ويبينوا حكم الشرع.

ثم بلغني جماعات متكررات في أوقات مختلفات، حصل لي العلم بقولهم أنك كرهت سعيهم في ذلك، وشرعت في ذم فاعل ذلك، وأسندت معظم ذلك كله لي - ويا حبذا ذلك من صنع -.

وبلغني عليك هؤلاء الجماعات: أنك قلت: قولوا ليحيى، هذا الذي سعى في هذا فينكف عنه، وإلا أخذت منه دار الحديث. وبلغني عليك هؤلاء الجماعات: أنك حلفت مرات بالطلاق الثلاث أنك ما تكلمت في انتزاع هذه البساتين، وإنك تشتهي إطلاقها.

فيا ظالم نفسه، أما تستحي من هذا الكلام المتناقض، فكيف يصح الجمع بين شهوتك إطلاقها وأنك لم تتكلم فيها، وبين كراحتك السعي في إطلاقها ونصيحة السلطان والمسلمين.

ويا ظالم نفسه، هل تعرض لك أحد بمركوه أو تكلم فيك بغيتك؟ وإنما قال العلماء: من قال هذا للسلطان فقد كذب ودلس عليه وغشه ولم ينسح، فإن السلطان ما يفعل هذا إلا لاعتقاده أنه خلال عند بعض العلماء، فينوا أنه حرام عند
جميعهم. وأما أنت فقد قلت إنك لم تتكلم فيها، وحلفت على هذا بالطلاق الثلاثة، فأي ضرر عليك في إبطال قول كاذب على الشرع، غاش مدرس على السلطان؟ قد قلت: إنه غيرك، وكيف تكره السعي على شيء قد أجمع الناس على استحسانه، بل هو واجب على من قدر عليه، وأنا بحمد الله من القادرين عليه بالطريق الذي سلكت، وأما نجاحه فهو إلى الله تعالى مقلب القلوب والأبصار.

ثم إنني أعجب غاية العجب من اتخاذك إياي خصماً، ويا حبذا من اتخاذ، فإنني بحمد الله تعالى أحب في الله تعالى وأبغض فيه، فأحب من أطاعه وأبغض من خالفه، وإذا أخبرت عن نفسك بكراهتك السعي في مصلحة المسلمين ونصيحة السلطان، فقد دخلت في جملة المخالفين، وصرت ممن بغضبه شبه العالمين، فإن ذلك من الإيمان كما جاء به الآثار الصحيحة المنقولة بأسانيد الأئمة الأكابر.

اًرض لمن غاب عنك غيته، فذاك ذنب عقابه فيه(1) ويا ظالم نفسه، أنا ما خاصمتاك أو كلفتك أو ذكرتك، أو بيني وبينك مخصصة أو منازعة أو معاملة في شيء، فما بالك تكره فعل خير يسرني الله الكريم له (ودافعوا عنهم إلا أن يؤمنوا والله) (2)

(1) ورد هذا البيت في الأصلين كأنه كلام مقتبس ليس فيه سمة الشعر، وبدل فيه: منه.
بل أنت لسوء نظرك لنفسك تنادي على نفسك، وتشهد الشهود بكراهـة هذه النصيحة التي هي مصرفة بأنك أنت الذي تكلمت في هذه البساتين، وأن الطلاق واقع عليك، وما أبعد أن تكون شبيهاً بـمن قال الله تعالى فيهم: "ولنوحن له في ذكر عزرته وذكر نجاه".

وياما عدو نفسه، أتراني أكره معاداة من سلك طريقتك هذه، بل والله أحبها وأوثرها، وأفعلها بحمد الله تعالى، فإن الحب في الله والبغض فيه واجب عليه وعليك وعلى جميع المكلفين، ولست أدرى أي غرض لك في حرسك على الإنكار على الساعين في إعظام حرمات الدين، ونصيحة السلطان والمسلمين.

فيا ظالم نفسه، انته عن هذا، وارجع عن طريقة المباهتين المعاندين. وأعجب من هذا تكرير الإرسال إلي بزعمك الفاسد كالمتوجه: إن لم ينكف أخذت منه دار الحديث. فيا ظالم نفسه وجاهل الخير وثاركه أطلعت على قلبي أني متهافت عليها، أو علمت أني منحصر فيها، أو تحققت أني معتمد عليها مستند إليها، أو عرفت أني أعتقد انحصر رزقي فيها، أو ما علمت لو أنصفت كيف كان ابتداء أمرها، أو ما كنت حاضراً مشاهداً أخذي لها، ولو فرض تهاذي عليها أكت أوثرها على مصلحة عامة

(1) البروج 8

117
للمسلمين مشتملة على نصيحة الله وكتبه ورسوله ﷺ والسلطان وعامة المسلمين؟!

هذا لم أفعله ولا أفعله إن شاء الله تعالى، وكيف تتوهم أنني أترك نصيحة الله ورسوله وسلطان المسلمين وعامتهم وعيفة من خيالاتك؟ إن هذه لغباوة منك عظيمة، ويا عجبًا منك كيف تقول هذا؟ أنت رب العالمين يذك خزائن السموات والأرضين، وعليك رزقي، ورزق الخلق جميعاً؟!

أم أنت سلطان الوقت تحكم في الرعية بما تريد، فلو كنت عاقلاً ما تهجمت على التفوو بهذا الذي لا ينبغي أن يقوله إلا رب العالمين أو سلطان الوقت، مع أن سلطان الوقت منذ عن قول الباطل، مرتفع المحل عن فعل ما ذكرت يا ظالم. فإن كنت تقول هذا استقلالاً منك فقد افتت عليه، واجترأت على أمر عظيم ونسبته إلى الظلم عدواناً، وإن كنت تقوله عنه فقد كذبت عليه، فإنه بحمد الله حسن الاعتقاد في الشرع، وذلك من نعم الله تعالى عليه، والسلطان بحمد الله وفضلله أكثر اعتقاداً في الشرع من غيره ومعظم حرماته، وليس هو ممن يقابل ناصحه بهذيانات الجاهلين، وترهات المخالفين، بل يقبل نصائحهم كما أمره الله تعالى.

واعلم أيها الظالم نفسه أني – والله الذي لا إله إلا هو – لا أترك شيئاً أقرر عليه من السعي في مناصحة الدين والسلطان في
هذه القضية، وإن رممت أنوف الكارهين، وإن كره ذلك أعداء المسلمين، وفرّ حزب المجادلين، وسترى ما أتكلم به إن شاء الله تعالى عند هذا السلطان وفقه الله تعالى لطاعته وتولاه الله ببركاته في هذه القضية؛ غيرة على الشرع، وإعظاماً لحرمات الله تعالى، وإقامة للدين، ونصيحة للسلطان وعامة المسلمين.

ويا ظالما نفسك، أجلب بخيلك ورجلك إن قدرت، واستعن بأهل المشرقين، وما بين الخافدين، فإني بمحمد الله تعالى فما من فضل الله تعالى أنك لا تقوى، لمباذة أقل الناس مرتبة، وإذا بما بمحمد الله تعالى ممن يود القتل في طاعته تعالى، أنت أضيع الحيل لمباذتي؟ أبلغك يا هذا أني لا أؤمن بالقدر؟ أو بلغك أني أعتقد أن الآجال تنقص، وأن الأرزاق تتغير؟ أما(1) تفكر في نفسك في قبيح ما أتيته من الفعال، وسوء ما نطقته به من المقال.

أيا عالم نفسك، من طلب رضي الله تعالى تره خيالاتك
وتمويهاتك وأباطيلك وترهاتك؟!

وبعد هذا كله أنا أرجو من فضل الله أن يوفق السلطان - أدام الله نعمة عليه - لإطلاق هذه البساتين، وأن يفعل فيها ما تقرر به أعين المؤمنين، ويرغم به أنف الخالفين، فإن الله تعالى قال: (وَالْمَقْبُولَةَ الْمُتَّقِينِ) والسلطان بمحمد الله تعالى

(1) في تحفة الطلابين المصرية: أم.
يفعل الخيرات، فما يترك هذه القضية تفويته.

واعلم أنك عندي بحمد الله تعالى أقل ممن أهتم بشأنك (1) أو أنت إلى خيالاتك وطلابك، ولكن أردت أن أعرفك بعض أمري لتدخل نفسك في منابذة المسلمين بأسرهم، ومنابذة سلطانهم - وفقه الله تعالى - على بصيرة منك، وترفع عنك جهالة بعض الأمر ليكون دخولك بعد ذلك معاندة لا عذر لك فيها.

ويا ظالم نفسه، أنتوهم أنه يخفى علي وعلى من سلك طريق نصائح المسلمين وولاة الأمر وحماة الدين، أن نعتقد (2) صدق قول الله تعالى: "وَالْمَيْقَاتِۢ ۠لِلْمُتَّقِينِ" (3) وقوله تعالى: "لَا يِجْعَلَ الْمَكْرَ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ إِلَّا ٍفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ" (4) وقوله تعالى: "فَلَا يُتَّخِذَ الْمَكْرَ إِلَّا بِخَيْرٍ وَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ" (5) وقوله تعالى: "فَلَا يُتَّخِذَ الْمَكْرَ إِلَّا بِخَيْرٍ وَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ" (6) وقوله تعالى: "فَلَا يُتَّخِذَ الْمَكْرَ إِلَّا بِخَيْرٍ وَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ" (7)

وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح:

(1) هكذا في الأصل وترجمة السخاوي ولعلها بشأنه وخيالاته أو لعل بدل ممن "مما" ليحسن توجيه الكلام.
(2) في الأصل "أنا لا نعتقد" وفيه إشكال من حيث المعنى.
(3) الآدف 128.
(4) فاطر 43.
(5) العنكبوت 69.
(6) سورة محمد 1.
(7) الروم 47.

120
لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضروا
 xmlns:dsi="http://dublincore.org/documents/2012/06/title/dsi/"><description>لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضروا</description></metadata>
والنوري من النادرين الذين يحسون بالألم الناس، وضيقهم ومظالمهم، ليس عنده من حب الذات ذرة واحده، ينطبق عليه قول المعري:

فلا نزلت علي ولا أرضي سحائب ليس تنظام البلادا ولو أن كل أحد يشعر بالألم غيره، ويتلهف لكشف ضره لخفت مصائب الإنسانية.

وفي بعض الحديث المتفق عليه «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته. ومن مشى مع ظلمون حتى يثبت له حقه ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام» والأحاديث كثيرة في هذا الباب.

والنوري رحمه الله عرف ذلك، فكان دقيقاً في تطبيقه، بل إن روحه امزجت به، حتى لو أراد غير ذلك لما استطاع، ودونك مثالين رائعين آخرين من رفقه بالناس والحرص على مصالحهم، ولم يفد من هذا إلا ثواب العمل الصالح.

المثال الأول:

احتج بلاد الشام القحط في سنة من السنين التي عاشها النوري في عهد الملك الظاهر حتى غلت الأسعار، وقات الغلال، وهلكت المواشي، فأجتمع مع أفراد من العلماء من الذين يؤثرون ما يؤثر من طاعة الله ومصلحة المسلمين على أن
يوقعوا كتاباً كتبه النووي، ليرفعه إلى الملك الظاهر عن طريق الأمير بيلبک (1).

يقول ابن العطار (2):

كان مواجهةً للملوك والجبابة بالإنكار، لا تأخذ في الله لومة لائم، وكان إذا عجز عن المواجهة كتب الرسائل، وتوصل إلى إبلاغها.

فمما كتبه وأرسلني في السعي فيه، وهو يتضمن العدل في الرعية، وإزالة المكوس عنهم.

وكتب في ذلك شيخنا شيخ الإسلام أبو محمد عبد الرحمن ابن الشيخ أبي عمر شيخ الحنابلة، وشيخنا العلامة قدوة الوقت أبو محمد عبد السلام بن علي بن عمر الزواوي شيخ المالكية (3) وشيخنا العلامة ذو العلوم أبو بكر محمد بن أحمد الشريشي، المالكي، وشيخنا العارف القدوة أبو إسحاق إبراهيم

(1) وهو الأمير بدر الدين الخازن nadar الظاهر، نائب المملكة وأتابك الجيوش، وكان موصوفاً بكثرة المعروف، ومحبة الصلاحاء والعلماء، وحسن السيرة، توفي سنة 766 أي في السنة التي توفي فيها النووي والملك الظاهر.
(2) تحقفة الطالبين 13 14 15.
(3) توفي أبو محمد الزواوي سنة 681 هـ، وكان بارعاً في الفقه وعلوم القرآن والقراءات.
ابن الشيخ العارف ولي الله عبد الله المعروف بابن الأرموي(1)، وشيخنا المفتي أبو بكر محمد بن العلامة أبي الفضائل عبد الكريم ابن الحرستاني خليل يثني دمشق وابن خطيبها، وجماعة آخرون، ووضعوا في ورقة كتبها إلى الأمير بدر الدين يلي بك الخزندار بإيصال ورقة العلماء إلى السلطان الظاهر التركي، وهذه صورتها:

"بسم الله الرحمن الرحيم.

من عبد الله يحيى النواوي. سلام الله ورحمته وبركاته على المولى المحسن ملك الأمراء بدر الدين، أدام الله الكريم له الخيرات وتولاه بالحسنات، وبلغه من خيرات الآخرة والأولى كل آماله وبارك في جميع أحواله آمين.

ونتهي إلى العلوم الشريفة أن أهل الشام في هذه السنة في ضيق عيش، وضعف حال بسبب قلة الأمطار، وغلاء الأسعار وقلة الغلات والنبات، وهلاك المواشي وغير ذلك، وأتمنى تعلم أن يجب الشفقة على الرعية والسلطان، ونصيحته في مصلحته ومصلحتهم، فإن الدين النصيحة، وقد كتب خدمة الشرع الناصحين للسلطان المحبون له كتاباً بتذكيره النظر في أحوال رعيته، والرفق بهم، وليس فيه ضرر، بل هو نصيحة.

(1) في الأصل: ابن الأرمي، والتصحيح من الشذرات، توفي الشيخ رحمه الله سنة 192 هـ.
محضة وشفقة تامة، وذكرى لأولى الألباب، والمذكور من الأمير - أيده الله تعالى - تقديمه إلى السلطان، أدام الله له الخيرات، وتكلم عليه من الإشارة بالرفق بالرعاية بما يجده مدخراً له عند الله: "يَوْمَ تُحْذَرُ نِّسَاءِ الْمَيْتِينَ، لَا يُعَلِّمُونَ مَا عَلَّمَهُمْ مِنْ خَيْرٍ، وَمَا عَلَّمَتْهُمْ مِنْ سُوءٍ تُوْدُّ لَوْ أَنَّهَا بَيْنَهُمْ، أَمَّا أَعْيَانُ، فَيَقُولُوا نِسَاءُ الْمَيْتِينَ" (1).

وهذا الكتاب الذي أرسله العلماء إلى الأمير أمانة ونصيحة للسلطان - أعز الله أصادره - وأتم المسؤولون عن هذه الأمانة، ولا عذر لكم في التأخر عنها، ولا حجة لكم في التقصير فيها عند الله تعالى وتسألون عنها: "يَوْمَ لا يُنْفِعُ مَا لَا يُبْقِ مَالٌ وَلَا بَقَآئُ" (2)
* وأيده وأيه وصجيده وبيته ليكل آمبي منتهم يومهم شأن يبيده (3).

أتمتهم بحمد الله تجبون الخير وتحرصون عليه، وتشاركون إليه، وهذا من أهم الخيرات، وأفضل الطاعات وقد أهلتم له، وساقه الله إليكم وهو فضل من الله، ونحن خائفون أن يزداد الأمر شدة، إن لم يحصل النظر في الرفق بهم قال الله تعالى: "إِنَّ أَلْلَهَ يُنْفِعُهُمْ طَأْفَةٍ مِّنَ الشَّيَاطِينِ تَدْخِلُونَهَا، إِذَا هُمْ مُخْبِرُونَ" (4) وقال تعالى: "وَمَا تَفَقَّضُوا مِنْ خَيْرٍ كَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ عَلَيْهِمْ" (5).

(1) آل عمران 30.
(2) الشعراء 88.
(3) عبس 37.
(4) الأعراف 201.
(5) البقرة 210.

125
والجماعة الكاتبون منتظرون ثمرة هذا، مما إذا فلتموه وجدتموه عند الله "إن الله مع الذين آمنوا وأليلن كه محيمنون" (1)
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فلما وصلت الورقتان إليه- أي إلى الأمير الخزندار- أوقف عليهما السلطان، فلما وقف عليهما رد جوابهما جواباً عنيفاً مؤلماً، فتنكّدت خواطر الجماعة الكاتبين وغيرهم. فكتب رحمه الله جواباً لذلك الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم.

من عبد الله يحيى النواوي: ينفي أن خدمة الشرع كانوا كتبوا ما بلغ السلطان أعز الله أنصاره، فجاء الجوام بالإنكار والتوجيه والتهديد، وفهما منه أن الجهاد ذكر في الجواب على خلاف حكم الشرع، وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها فقال تعالى: "وإذا أخذ الله ميثق الذين أوتوا الكتب لتبيانه لإنان ولا تكتموه" (2) فوجب علينا حينئذ بيانه وحرم علينا السكوت، قال تعالى: "لا تبئس على الصمعك ولا على المرضيء ولا على اللذين لا يجدورون ما يبقيون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ما علّ

(1) النحل 128.
(2) آل عمران 187.

126
المحبينين بين سلسلة وَلَّد يَعْنِيُّ (١) وذكر في الجواب: أن الجهاد ليس مختصاً بالأجناد، ولكن الجهاد فرض كفاية، فإذا قرر السلطان له أجناد مخصصين، ولهم أخباز معلومة من بيت المال كما هو الواقع، تفرغ بقية الرعية لمصالحهم، ومصالح السلطان والأجناد وغيرها من الزراعة والصناعات وغيرها (٢) مما (٣) يحتاج الناس كلهم إليها، فجهاد الأجناد مقابل بالأخباز المقررة لهم ولا محل أن يؤخذ من الرعية شيء، ما دام في بيت المال شيء من نقد أو متباع أو أرض أو ضياع تباع أو غير ذلك.

وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان - أعز الله أنصاره، متفقون على هذا، وبيت المال بحمد الله مصور زاده الله عمارة وسعة وخبراً وبركة في حياة السلطان المصورة بكمال السعادة والتوفيق والتسديد، وظهور على أعداء الدين، وَمَا إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ (٤) وإنما يستعان في الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى، واتباع آثار النبي صلى الله عليه وسلم، وأحكام الشرع، وجميع ما كتبناه أولًا وثانياً هو النصيحة التي نعتقدها، وندين الله

(١) التوبة ٩١.
(٢) الأصل: أو غيرهم.
(٣) الأصل: الذي.
(٤) آل عمران ١٢٦.

١٢٧
بها، ونسأل الدوام عليها حتى نلقاه، والسلطان يعلم أنها نصيحة له وللرعية، وليس فيها ما نلام عليه، ولم نكتب هذا للسلطان إلا لعلمنا أنه يحب الشرع ومتابعة أخلاق النبي ﷺ في الرفق بريعته والشفقة عليهم، وإكرامه لأثر النبي ﷺ وكل ناصح موافق على هذا الذي كتبناه.

وأما ما ذكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار حين كانوا في البلاد، فكيف تقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان والقرآن بطغاة الكفار، وأي شيء كنا نذكر طغاة الكفار، وهم لا يعتقدون شيئاً من ديناً. وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا، وتهديد طائفة فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه، وأي حيلة لضعفاء المسلمين المفترقين في أقطار ولاية السلطان في كتاب كتبه بعض المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان وله، ولا علم لهم به، وكيف يؤخذون به لو كان فيه ما يلام عليه؟!

وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد ولا أكبر منه، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان، فإني أعتقد أن هذا واجب على وعلى غيري، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى {إِنَّمَا يَدْعُو اللَّهُ الْحَيَّ الْوَاهِجُ الْكَبِيرُ} 71{فَّأَمَّا أَثَّرَتُ إِلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ ظَنَّاً بَالْعِبَادَ} 72. وقد أمرنا

(1) غافر 39.
(2) غافر 44.

128
رسول الله ﷺ أن نقول الحق حيث ما كنا، وألا نخف في الله لومة لائم، ونحن نحب للسلطان معاي الفائق، وأكمل الأحوال وما ينفعه في آخره ودنياه، ويعمل سببا لدوام الخيرات له، ويقى ذكره له ممر الأيام، ويخلد في سنة الحسنة، ويجد نفعه يُقيم تجده صكلاً متينًا عابلاً ممّا يحرر عمارةٍ (1). وأما ما ذكر من تمهيد البلاد، وإدارة الجهاد، وفتح الحصون، وقهر الأعداء، فهذا بحمد الله من الأمور الشائعة التي اشترك في العلم بها الخاصة والعامة، وسارت في أقطار الأرض والله الحمد، وثواب ذلك مذخر للسلطان إلى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضاً، ولا حجة لنا عند الله تعالى إذا تركنا هذه النصيحة الواجبة علينا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما المثال الثاني:

فهو حرصه الشديد على مصلحة إخوانه من الفقهاء، فقد صدر مرسوم بأن الفقيه لا يكون منزلًا في أكثر من مدرسة واحدة، فانبرى النووي رحمه الله بمساعدتهم. ولا يظن أحد أنه في ذلك ينفع نفسه، لأن النووي كان لا يأخذ شيئًا من أي مدرسة، حتى الخيز، وإن صدع وأخذ فما كان ينفع به، وإنما كان يجمعه ليشتري كتبًا أو دارًا ويوقفها، ومحاولة هذا لا يقصد بها إلا الخير لغيره ولو لم يفد شيئًا، وعلى هذا كتب الكتاب الآتي:

(1) آل عمران 30.
يقول ابن العطار (١):

ومما كتبه بسبب الفقهاء لما رسم بأن الفقيه لا يكون متزلاً في أكثر من مدرسة واحدة وهذه صورته:

بسم الله الرحمن الرحيم. خدمة الشرع يُنْهُون أن الله تعالى أمرنا بالتعاون على البر والتمويق، ونصيحة ولاقة الأمور وعامة المسلمين، وأخذ على العلماء العهد بتبليغ أحكام الدين، ومناصحة المسلمين، وحث على تعظيم حرمائه، وإعظام شعراء الدين، وإكرام العلماء، وأتباعهم، وقد بلغ الفقهاء أنه رسم في حقهم بأن يغيروا عن وظائفهم، ويقتطفوا عن بعض مدارسهم، فتنكدت بذلك أحوالهم، وتضرروا بهذا التضييق عليهم، وهم يحتاجون لهم عواج، وفيهم الصالحون والمشتغلون بالعلوم، وإن كان فيهم أفراد لا يلتحقون بمراتب غيرهم، فهم منتصبون إلى العلم ومشاركون فيه، ولا تحفي مراتب أهل العلم وفضلهم وثناء الله تعالى عليهم، وبيانه مزيتهم على غيرهم، وأنهم ورثة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وأن الملائكة - عليهم السلام - تضع أجنحتها لهم، ويستغفر لهم كل شيء حتى الحيتان.

واللائق بالجناب العالي إكرام هذه الطائفة والإحسان

(١) تحفة الطالبين ١٨.
إليهم، ومعاضدتهم، ودفع المكروهات عنهم، والنظر في أحوالهم بما فيه الرفق بهم، فقد ثبت في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: "اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فوفق بهم فارفق به".

وروى أبو عيسى الترمذي بإسناده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه كان يقول لطلبة العلم: مرحبأ بوصية رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ قال: "إن رجالاً يأتونكم يتفقهون في الدين، فإذا أتروك فاستوصوا بهم خيراً".

والمسؤول أن لا يغير على هذه الطائفة شيء، وتستجلب دعوتهم لهذه الدولة القاهرة، وقد ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: "هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم".

وقد أحاطت العلوم بما أجاب به الوزير نظام الملك حين أنكر عليه السلطان صرف الأموال الكثيرة في جهة طلبة العلم، فقال: أقمت لك بها جنداً لا تُرَد سهامهم بالأسحار، فاستصوم فعله وساعده عليه. والله الكريم يوفق الجناب دائماً لمرضاته والمسارعة إلى طاعته، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

131
هذا ما ظفرنا به من رسائل للنووي رحمه الله، وكلها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا بد أنه كتب غيرها، ولو أردنا أن نحلل كتبه وندرس ما فيها دراسة مستقيضة لاحتجنا إلى الكثير مما لا يتسع له المقام. ونذكر هنا عنها ولو شيئاً قليلاً.

كان الأسلوب المتعارف في عصر النووي، أن تكتب أمثال هذه الرسائل بتأنث وسجع وكثير من التكلف، ويختار لها من الألفاظ ما يتناسب مع مقام الملوك من الفخامة والجرس، مع كثير من ألفاظ الخنوع للمكتوب له.

ولكن النووي غير بكتابته هذه الطرائق، فكان طبيعياً جداً يكتب كأنه يتكلم، بل ربما كانت كتابته أبسط من عبارة كما قال الجهبي، ولئن طرزاً مقدمات مؤلفاته بالسجع على عادة المؤلفين في عصره، لم يستحسن السجع في هذه الرسائل، لأن السجع في هذا المقام تكلف وضياع للمقصود، وقارئ الرسالة المسجوعة تشغله الصنعة عن التعمق بمضمونها والتأثير بها، والنووي إنما كان يريد أن يصل إلى قلب من كتب إليه بدون حاجز من صنعة أو زخرف.

وقد اشتملت رسائله من حيث المعنى على الترغيب والتهيج وقليل من المديح المحشو بالتهديد بالله، كما يلبس الدواء - وقد يكون مراً - بقليل من الحلاوة لتفقه النفس، ولكن

132
هذا قليل ضائع في الجمل الكثيرة في التخويف من الله الذي إليه المصير.

ورز النووي في كتابه شجاعاً قوي الشكيمة، لا يرهب العتاة والجبارين ما دام مستمسكاً بحبل الله، يقول من رسالة:

"أوأما أنا في نفسي، لا يضرني التهديد ولا أكبر منه، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان" ويسند له بقوله تعالى: "إِنَّمَا هذِهِ الْحَيَوَاتُ الْعَالِمَةُ وَإِنَّ الْآخَرَةَ هِيَ دَارُ الْقَارَأَرٍ"(1).

ثم يعود فيقول بغير تذلل، بل بطريقة تشبه طريقة كلام الأب حين يكلم ابنه المنحرف يشتد عليه ثم يلين، يقول النووي بعد رفضه التهديد بقوة: "ونحن نحب للسلطان معالي الأمور وأكمل الأحوال".

هذا ومن الإنصاف أن أقول: إنني لم أقرأ في حياتي في مثل مقام النووي من الملك الظاهر - رسائل تشبهها بعد عهد الصحابة والتابعين، لا من حيث بلاغتها، فقد كان ما هو أبلغ، ولكن من حيث القوة والشجاعة والإخلاص والتفع.

وإذا كان النووي لا يبالى في سبيل الله وفي سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يقتَل أو يقطع رزقه، فلا يبالى بالأولى أن يهان أو يطرد أو يضرب.

(1) غافر 39.
يقول القطب اليوناني (1): ولقد شاهدته مرة طلع إلى زاوية الشيخ خضر (2) بالجبال المشرف على المزة - أو على الربوة من جهة الغرب - وحدثه في أمره، وجلس معه، وأغلظ له، فسمع الشيخ خضر كلاماً مؤلماً، فأمر بعض من عاله بإخراجه ودفعه، فما تأثر لذلك في ذات الله عز وجل، ولا رجع عن قصده لتفع يجلبه لبعض المسلمين، فقد كانت مقاسده جميلة، وأفعاله تعالى.

(1) ترجمة النووي للسخاوي 54.

(2) وقد ترجمه ابن كثير في البداية والنتيجة بما يلي: خضر بن أبي بكر بن موسى الكردي النهرواني العدوي، ويقال أن أصله من قرية المحمدية من جزيرة ابن عمر، كان ينسب إليه أحوال ومكاشفات، ولكنه لما خالط الناس افتتن بعض بنات الأمراء، وكان يقول عن الملك الظاهر وهو أمير: إنه سيلي الملك، فلهذا كان الملك الظاهر يعتده ويبالغ في إكرامه بعد أن ولي المملكة، ويعظمه تشجياً زائداً، وينزل عنده إلى زاويته في الأسبوع مرة أو مرتين، ويستحبمه فيه في كثير من أسفاره، ويلزمه ويهجره، ويستشيره فهو عليه يرأيه، ومكاشفات صحيحة مطابقة، إما رحمانية أو شيطانية، أو حال أو سعادة، إلى أن قال: فلما وقع ما وقع فيه حوقق عند السلطان، وتمة، وفلاجون والفارس أقطاي الأتابك، فأعترف، فهم بقته، فقال له: بيني وبينك أيام قلائل، فأمر بسجنه فسجنه ستين سنة منذ سنة إحدى وسبعين إلى سنة ست وسبعين، ولم يزل مسجوناً حتى مات سنة 676 وهي السنة التي توفي فيها النووي رحمه الله والملك الظاهر ببرس.
هذه جملة من أمره بالمعروف ونفيه عن المنكر، وهي كثيرة ويكفي أن تعلم أنه لا يمكن أن يسكت عن كل مخالفته شرعية مهما يكن مصدرها، من أدنى الناس إلى الملوك والرؤساء، ومن العامة إلى الخاصة، من غير كبير ولا عجب. ومن الواعظين من يرى المنكر في صغار الناس، ولا يراه في كبارهم، ويراه في السوقة فيشتد بإنكاره، فإذا رآه في الكبار من الملوك والأمراء وذوي الأمر والنهي خَرَس، هذا إذا لم يخلق المبررات، ويخترع الفتوى.
ثناء العلماء عليه

أجمع العلماء والفقهاء والمحدثون، والزاهدون، والمتبعدون، على حب النووي والثناء عليه، لأنه جمع ذلك
كله، وأخلص الله فيما قرأ وفيما علم وفيما ألف، ولا يكون في الغالب - إجماع إلا و يكون عن علم وإخلاص، وما كان يضيق به إلا منحرف لصدعه بالحق، وإقدامه على النصيحة، وأمره
بالمعروف ونهيه عن المنكر، ومن هؤلاء الشيخ خضر الكردي، والشيخ المفتي العلامة الفركاح، وقد سبق الحديث عنهما.

وهناك طائفة من ثناء العلماء عليه:

وصفه ابن العطار (١) بقوله: شخذي وقدوتي، الإمام ذو
tالصَّنَافِي المفيدة والمؤلفات الحميدة، أوحد دهره، وفريد
عصره الصَّوام القوام، الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة،
صاحب الأخلاق الرضية، والمحاسن السنية، العالم الرباني,
المتفق على علمه وإمامته، وجلالته وزهده، وورعه وعبادته,
وصيانته في أقواله وأفعاله وحالاته، له الكرامات الطافحة،

١) تحفة الطالبين ٢/ ب و ٩/ ب.
المكرمات الواضحة، والمؤثر بنفسه وماله للمسلمين، والعالم بحقوقهم وحقوق ولادة أمورهم بالنص، والدعاء في العالمين، مع ما هو عليه من المجاهدة لنفسه، والعمل بدائيات الفقه والاجتهاد بالخروج من خلاف العلماء ولو كان بعيداً، والمراقبة لأعمال القلوب وتصفيتها من الشوائب، يحاسب نفسه على الخطرة بعد الخطرة. وكان محقاً في علمه، وفطن، مدقاً في عمله وشئونه، حافظاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، عارفاً بأنواع كلها من صحيحه وسقيمه، وجريف إلفاظه وصحيح معانيه، واستباطه فقهه، حافظاً للمذهب الشافعي وقواعده وأصوله وفروعه، ومذاهب الصحابة والتابعين واختلاف العلماء ووفاقهم وإجماعهم، وما اشتهر من ذلك جميع وما هجر، سالكاً في كل ذلك طريق السلف. قد صرف أوقاته كلها في أنواع العلم والعمل، فبعضها للتصنيف، وبعضها للتعليم، وبعضها للصلاة وبعضها للتلاوة والتدبر، وبعضها لل أمر بالمعروف والنفي عن المنكر.

وقال ابن الطار: قال لي الشيخ العارف المحقق المكاشف أبو عبد الرحمن محمد الإخميمي قدس الله روحه

(1) تحقّة الطالبين 10 / ب.
(2) هو محمد بن الحسن بن إسماعيل، نزل سفح قاسيون كان صاحب توجه وتعبد، وللناس فيه عقيدة عظيمة، توفي سنة 184 هـ.
ونور ضريحه: كان الشيخ محي الدين رحمه الله سالكا منهاج الصحابة رضي الله عنهم، ولا أعلم أحداً في عصرنا سالكاً على مناهجهم غيره.

وقال الذهبي في سير النبلاء(1): 

الشيخ القدوة، الحافظ الزاهد العابد، الفقيه المجتهد الرباني، شيخ الإسلام، حسنة الأنام محي الدين، صاحب التصانيف التي سارت بها الركبان، واشتهرت بأقاصي البلدان . . . إلى أن قال: لازم الاشتغال والتصنيف محتسباً في ذلك مبتمياً وجه الله مع التعب والصوم والتهجد والذكر والأورد، وحفظ الجوارح، وذم النفس، والصابر على العيش الخشن، وملازمة كلية لا مزيد عليها، وكان مع ملازمته التامة للعلم، ومواضيعه لدقائق العمل، وتزكية النفس من شوائب الهوى، وسبيء الأخلاق، ومحقها من أغراضها؛ عارفاً بالحديث، قائماً على أكثر فنونه، عارفاً برجاله، رأساً في نقل المذهب، متضلعاً من علوم الإسلام.

وقال الذهبي أيضاً في العبر(2): وكان - أي النووي - مع تبحره في العلم وسعة معرفته بالحديث والفقه واللغة وغير ذلك بما قد سارت به الركبان - رأساً في الزيادة وقدوة في الورع،

(1) نقلًا عن السخاوي 58.
(2) العبر 5/312. 138
عدوم المثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قانعاً باليسير، راضياً عن الله، والله عنه راض، مقتضداً إلى الغاية في ملبسه ومطعمه وإنائه، تعلوه سكينة وهيبة، والله يرحمه ويسكنه الجنة بمنه.

وقال ابن كثير في طبقات الشافعية له:(1): 
الشيخ الإمام، العلامة الحافظ، الفقيه النبيل، محرر المذهب ومذهبه، وضابطه، ومرتبه، أحد العباد والعلماء الزهاد، وكان على جانب كبير من العلم والعمل والزهد والتقشف، والاقتصاد في العيش، والصبر على خشونته، والتورع الذي لم يبلغنا عن أحد في زمانه، ولا قبله بدهر طويل.


(1) ترجمة النوروي للسخاوي 61.
(2) تحفة الطالبين 10 / ب.

139
وقال الشيخ شمس الدين بن الفخر الحنبلي: كان - أي النووي - إماماً بارعاً حافظاً متكنناً، أنقن علوماً جمة وصنف التصانيف الجمة، وكان شديد الورع والزهد، تاركاً لجميع الرغائب من المأكل إلا ما يأتيه أبوه من كعك وتين. وأرخه الشيخ قطب الدين اليوناني (1) وقال: كان أوحد زمانه في العلم والورع والعبادة والتقلل وخضوته العيش، واقف الملك الظاهر بدار العدل غير مرة، فحكى عن الملك الظاهر أنه قال: أنا أفزع منه. أهد. أقول: وهكذا من خاف الله خافه كله شيء.

يقول السخاوي (2): ونقل التاج السبكي في التوشيح عن والده - التقي - أنه قال:

ما اجتمع بعد التابعين المجموع الذي اجتمع في النووي ولا التيسير الذي يسر له.

وقال المؤرخ صارم الدين إبراهيم بن دفماق الحنفي في تاريخه "نزهة الأنام" (3):

(1) تذكرة الحفاظ 4/1473. 1473/1474.
(2) تاريخ النووي 34.
(3) السخاوي 62-63.
الشيخ الإمام القدوة، العلامة الزاهد، العابد الناسك
الخاشع، شيخ الوقت، فريد العصر، بركة الزمان، لم يكن في
زمانه مثله في دينه وعمله وزهده وورعه، وكانت مقاصده جميلة،
وأفعاله الله تعالى.

وقال ابن كثير (1): وقد كان - أي النووي - من الزهادة
والعبادة والورع والتحري والانجاح عن الناس، على جانب
كبير، لا يقدر عليه أحد من الفقهاء غيره.

وقال السيوطي: النووي الإمام الفقيه الحافظ الأول.

وقال السيوطي: النووي الإمام الفقيه الحافظ الأول.

وقال الذهبي في تاريخ الإسلام (2):

المفتى الأمة، شيخ الإسلام، الحافظ النبي، أحد الأعلام،
علم الأولياء.

ويقول التاج السبكي في الطبقات الكبرى (3) وبالجملة:
كان قطب زمانه، وسيد وقته، وسر الله بين خلقه.

وقال التاج السبكي في الطبقات الوسطي (4):

(1) البداية والنهائية 13 / 279.
(2) السخاوي 58.
(3) الطبقات الكبرى 8/ 397.
(4) السخاوي 61 - 61

141
الشيخ الإمام، شيخ الإسلام، أستاذ المتآخرين، حجة الله على اللاحقين، ما رأت الأعين أزهد منه في يقظة ومنام، ولا عاينت أكثر اتباعاً منه لطرق السالفين من أمة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، له التصانيف المفيدة، والمناقب الحميدة، والخصائص التي جمعت طرف كل فضل وتليده، والورع الذي خرب به دنياه، وجعل دينه معموراً، والزهد الذي كان يحيى به سيداً وحضوراً. هذا إلى قدر في العلم لو أطل على المجرة لما ارتفى سريعاً في أعطانها، أو جاور الجوزاء لما استطاب مقاماً في أوطانها، أو حل في دارة الشمس لألف من مجاورة سلطانها.

وطالما فاه بالحق لا تأخذه لومة لائم، ونادى بحضرة الأسود الضراغم وصدع بدين الله بمقال ذي سريرة يخف يوم تبلى السرائر، ونطق محصصاً بالباطن الظاهر غير ملتفت إلى الملك الظاهر، وقبض على دينه والجمير يلتهب، وصمم على مقاله والصارم للأرواح يلتهب، لم يزل طول عمره على طريقة أهل السنة والجماعة، مواظباً على الخير لا يصرف منه ساعة في غير طاعة ... إلى أن قال: فكان قطب زمانه، وسيد وقته، وسر الله بين خلقه. والتطوير بذكر كراماته تطويل في مشهور، وإسهام في معروف، وقد سافرت لزيارة قبره بنوى وزرته، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته.

وأفرد ترجمته: التقي محمد بن الحسن اللخمي في أربعة
أوراق وقال (١): إن كان عالماً بالفقه وفروعه من أقوال الشافعي، رحمه الله وأوجه أصحابه، مكث نحو عشرين سنة، يفتي ويعلم الناس العلم والفقه والحديث والأدب والزهده، وكان ليس في عصره في بلاد المسلمين مثله، محققًا حافظًا متقدًا ورعاً، مدققاً في الحديث، عالماً بصحيحه وحسنه، وسقيمه وغريبه وأحكامه عارفاً بلغته وأسماء رجاله، وضبطهم وجرحهم وتعديلهم وموازيهم ووفياتهم، محققًا في الألفاظ المشكلة، له في متونه يد طويلة، كثير النقل جداً، مداومًا للمطالعة والتأليف، عارفاً بفن التصريف، وفن العربية واللغة كثير السبع وغيرها، كثير الخبرة بالأصولين معرفة جيدة، وبالقراءات السبع وغيرها، كثير الخبرة بمذاهب العلماء المشهورة والمهجورة، لين القلب، سالكاً طريق السلف في الزهد في الدنيا، والمبادئ في الخشوع والورع. غزير الدمعة، كثير الصمت حافظًا للسائه أشد الحفظ، غاضباً للطرف، طويل الفكر، حسن الأخلاق جداً، إذا أذاه أحد، يقول له: يا مبارك الحال، مثابراً على الصوم والأمر بالمعرف والنهي عن المنكير في أشد المواطن وأصعبها، محاسبًا لنفسه. حافظًا لأوقاته، قد جزأ كل وقت منها لنوع من العمل، فغالبًا للإيشغال بالعلم، وبعضها للتعليم والعبادة، كالصلاة بالليل والتسليم.

(١) السخاوي ٥٦-٥٧.
والقراءة بالتدبر. أثنى عليه الأئمة الصلحاء والعلماء العارفون، وتأسف المسلمون عليه بعد مماته أسفًا بليغًا، وجزعوا عليه جزوعًا شديداً الخاص منهم والعام، والمادح في حال حياته والذام.

وقال اليافعي في مرآة الجنان(١) عن النووي:
الفقيه الإمام شيخ الإسلام، مفتي الأنام، المحدث المتقن، المحقق المدقق، التجيب الحبر المفيد، القريب والبعيد، محرر المذهب ومهذبه وضابطه ومربيه، أحد العباد الورعين الزهاد، العالم العامل، المحقق الفاضل، الوالي الكبير، السيد الشهير، ذو المحاسن العديدة والسيرة الحميدة والتصانيف المقفدة، الذي فاق جميع الأقران، وسارت بمحاسنه الركن، واشتهرت فضائله في سائر البلدان، وشهدته منه الكرامات وارتقي في أعلى المقامات، ناصر السنة، ومعتمد الفتاوى.

إلى أن قال: لعمري إنه عديم النظير في زهده وورعه وآدابه وجمال سيرته، وسائر محاسنته فيمن بعده من العلماء.

وهناك الكثير الكثير من ثناء العلماء عليه، اختصرنا من ذلك ما قدمناه، والخلاصة في الثناء عليه ما قاله ابن العطار(٢):
قال: قال لي المحدث أبو العباس أحمد بن فرح الإشبيلي، ونقله

(١) ١٨٢ / ٤.
(٢) تحقية الطالبين ١٩.
الذهبي أيضاً عن شيخه ابن فرح(1) قال:
كان الشيخ محي الدين قد صار إليه ثلاث مرات، كل مرتبة منها لو كانت لشخص شدت إليه آباد الإبل. من أقطار الأرض، المرتبة الأولى: العلم والقيام بوظائفه. الثانية: الزهد في الدنيا وجميع أنواعها. الثالثة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
ويرحم الله ابن العطار تلميذه إذ يقول(2) ورأيته منه أموراً تحمل مجلدات.

إكباره وتقديره:
من أعظم ما كان يمتاز به كبار العلماء في كل العصور وخصوصا العلماء العاملين أن يقدر بعضهم بعضاً، وأن يكبر أحدهم من هو أقل منه، ويعتر بمصاحبه والانتفاع بعلمه وحِكْمَه وتجاربه، وإذا لم يدركه تبارك بآثاره، ونظر في كتبه وازداد له تقديراً واحتراماً. وفي هذا الباب نذكر حادثتين بطولهما واحد هو مجتهد وقته الشيخ تقي الدين السبكي مع الإمام النووي. إحداهما: يقول التاج السبكي ولد التقي تلميذه(3) وأنا

______________________________
(1) ذكرية الحفاظ 4: 1473.
(2) السخاوي 55.
(3) الطبقات الكبرى 8/395-396.
إذا أردت أن أجمل تفاصيل فضله أي النووي وآدل الخلق على مبلغ مقداره بمختصر القول وفصله، لم أزيد على بيتين أنشدنيهما من لفظه لنفسه الشيخ الإمام - يعني والده التقى السبكي - وكان من حديثهما: أنه لماسكن في قاعة دار الحديث الأشرفية في سنة اثنين وأربعين وسبعمائة، كان يخرج في الليل إلى إيوانها، ليتهجد تجاه الأثر الشريف، ويرمغ وجهه على البساط، وهذا البساط من زمان الأشرف الواقف، وعليه اسمه، وكان النووي يجلس عليه وقت الدرس، فأنشدني الوالد لنفسه:


(1) السخاوي 60.
ثناوئ على العلماء:
من المعلوم أن النووي له كتاب الطباقات وقد تقدم ذلك،
وبدهي أنه رضي الله عنه لا يمدح أحداً إلا بما فيه، وعلى قدر ما
 فيه. وبأيدينا نموذج عن ثنايته، ودونك بعضه.
قال النووي عن الرافعي (١): الرافعي من الصالحين
المتمكنين كانت له كرامات كثيرة.
ويقول التعيمي (٢) صاحب الدارس (٣): كان الشيخ النووي
يشني على الشهاب أحمد العنايبي، ويرسل له الصبيان ليقرأووا عليه
في بيته لأمانته عنده، وصيانته وديانته.
وقال النووي (٤): عن ضياء الدين الدولي (٥): كان شيخ
شهوخنا، وكان أحد الفقهاء المشهورين، والصلحاء الورعين.
وقال النووي عن ابن عساكر (٦): هو حافظ الشام، بل هو
حافظ الدنيا، الإمام مطلقًا، الثقة الثابت.

(١) الطبقات الكبرى للسبكي ٨/٢٨٤.
(٢) وهو عبد القادر بن محمد بن عمر، مؤرخ دمشق في عصره ومن علماء
الحديث، توفي في دمشق سنة ٩٢٧ هـ.
(٣) الدارس ٢/١٤١.
(٤) الدارس ١/٤١٩.
(٥) وهو عبد الملك بن زيد الثقفي الدولي، فقه شافعي كبير، توفي سنة ٥٨٨ هـ.
(٦) الطبقات الكبرى ٧/٢١٩.

١٤٧
حلية النووي وبيزته:

لو رأى النووي أحدًا لا يعرفه، لظنه أحد فلاحي نوى أتي دمشق يزورها، فليس عليه مما يظهر به علماء زمانه من فخامة الزي الذي اختصوا به، ذلك لأنه زاهد قانع، لا يعير شيئاً من إقباله واهتمامه لعرض من أعراض الدنيا، فكل همه مصرف لآخرته من علم وتعليم، وصدق مع الله وصدق مع نفسه، مع انشغاله بالعبادة، فخوف الله تعالى أخذ عليه كل طريق. يقول الذهب في وصفه (1): كان أسمر، كث اللحية، رَبعة، مهيبًا، قليل الضحك، عديم اللعب، بل جد صرف، يقول الحق وإن كان مرأ، لا يخف في الله لومة لائم.

ووصف الذهب أيضاً: بأن لحيته سوداء فيها شعرات بيض، وعليه هيئة وسكينة. وقال الأنسوي (2): كان في لحيته شعرات بيض، وعليه سكينة ووقار في البحث مع الفقهاء.

(1) ترجمة النووي للسخاوي 369.
(2) شذرات الذهب 5/356.

ماكله ومشربه:

كان رحمه الله خشن العيش، قانعاً بالقوة، تاركًا للشهوات صاحب عبادة وخوف، وكان لا يأكل في اليوم والليلة إلا أكلة واحدة، وقوته من قِبل والده، يجري عليه في الشهر شيء الطيف، وكان لا يشرب إلا مرة بالسحر.

قال الشمس بن الفخر: إنه كان قد ترك جميع ملاذ الدنيا من المأكول، إلا ما يأتيه به أبوه من كعك يابس وتين حوراني، وترك الفواكه جميعها. وكان لا يأكل في اليوم والليلة سوى أكلة واحدة بعد العشاء الآخرة، ولا يشرب إلا شربة واحدة عند

1) ترجمة النموي للسخاوي 39.
2) التذكرة 4/1471.
3) التذكرة 4/1474.
4) مفاتيح السعادة 1/398.
5) طبقات السبكي 8/397.
6) ترجمة النموي 38.
السحر، وإذا شرب فلا يشرب الماء المبرد (1).

وقال ابن دقماق: إنه كان يأكل من خبز يبيعه له أبوه ويشترون له ما يكفيه جمعة، فياكله ولا يأكل معه سوى لون واحد، إما دبس، وإما خل، وإما زيت، وإما اللحم، ففي كل شهر مرة، ولا يكاد يجمع بين لونين من إدام أبداً (2).

وقال الكمال الأدفوي: ولا يأكل اللحم إلا عندما يتوجه لنوي (3).

ويقول ابن العطار: ورأيت رجلاً من أصحابه قشر خياره ليطعمه إياها، فامتنع من أكلها، وقال أخشى أن ترطب جسمي وتجلب النوم (4)، قال السخاوي: ونحوه عدم تعاطيه البلح على عادة الدمشقيين (5).

وعزم عليه الشيخ برهان الدين الأسكتدري أن يفطر عنده في رمضان، فقال: أحضر الطعام إلى هنا ونفطر جملة، قال ابن العطار: فأفترنا ثلاثين أو أكثر على لونين من الطعام، وكان الشيخ في بعض الأوقات يجمع إدامين (6).

______________________________

(1) ترجمة النووي للسخاوي 39.
(2) نفس المصدر.
(3) نفس المصدر.
(4) ترجمة النووي 38.
(5) ترجمة النووي 38.
(6) ترجمة النووي 38.
وفي القدر السافر حكاية عن قضية القضاة الجمال سليمان الزرعي: أنه كان يتردد إليه وهو شاب، قال: فجئت إلىه في يوم عيد فوجدته يأكل خزيرة (1) مدخنة، فقال: سليمان، كل، فلم تطلب لي، فقام أخوه وتوجه إلى السوق، وأحض شواء وحلوى وقال له: كل، فلم يأكل قال له: يا أخي أهذا حرام؟ فقال: لا، ولكنه طعام الجبابة (2). وقلت: وسمعت أهل دمشق يذكرون أنه كان يشرب من عين الوراقة (3).

النوي لم يتزوج:

إنّ النوي لم يتزوج قط. ولعل السبب في ذلك أنه زاهد في متع الدنيا كلها، بل ليس في عقله وقلبه ذرة واحدة يمكن أن تعبأ بغير ما صرف حياته كلها إليه، من تحصيل العلم والتقوى والعبادة، فإذا كان مدة طلبه العلم لم يتم إلا قليلاً - وفي النوم راحة الجسم وراحة العقل والحواس - فكان إذا غلب النوم استناد إلى الجدار قليلاً وهو جالس، ثم يستيقظ مذعوراً كأن شيئاً ثميناً سرق منه، وأثمن شيء لديه وقته فإذا كانت هذه حاله في النوم وهو من ضرورات الحياة، فحاله في إشغال نفسه بالزواج أبعد من أن تخطر على باله. وإذا قلنا: أنه قطع التفكير في الجنس

(1) الخزيرة: دقيق يلقي على ماء أو على لبن فيطبخ.
(2) ترجمة النوي للسخاوي 39.
(3) المرجع نفسه.
قطعاً بائناً من مطلع شبابه لا يبعد عن الصواب. ومن طريف ما حكي عن نفسه - كما سمع منه تلميذه ابن العطار ورواه عنه - أنه في أول طلب العلم قرأ أن من موجبات الغسل التقاء الختانين، فكان يظن المعنى أن ذلك قرقرة في البطن، فكلما قرقر بطنه ذهب فاغتسل، حتى أصابه من ذلك عنت ومرض، وبعد زمن عرف المراد.

وقد يكون تركه للزواج نابعاً من الورع ومخافة الله، فهو يخشى إن تزوج ألا يستطيع أن يعطي الزوج حقها، والله تعالى يقول: { وَأَلْهَمَنَ مِّثْلَ الَّذِي عَلَّمَهُ اللَّهُ وَالرُّسُلَ عَلَّمَهُمْ دِرُوجَةٌ وَلَمْ يَعْبُرُ ۖ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (1) وهي إمارة المجتمع الصغير: الأسرة. وقد تحدث النووي عما عليها من حقوق في شرحه لمسلم (2) تعليقاً على حديث عن أسماء "أنها كانت تعلف فرس زوجها الزبير وتكميه مؤونته وتسوسه، وتدق النوى لناضحه، وتسقى الماء وتعجن"، فيقول النووي: "هذا كله من المعروف والمروات التي أطبق الناس عليها، وهو أن المرأة تخدم زوجها بهذه الأمور المذكورة ونحوها من الخبز والطبخ وغسل الثياب وغير ذلك، وكله تبرع من المرأة وإحسان منها إلى زوجها وحسن معاشرة، وفعل معروف معه، ولا يجب عليها شيء من ذلك بل لو امتنت...

(1) البرقعة 228.
(2) شرح مسلم 164/15.
من جميع هذا لم تأثر، ويلزمه هو تحصيل هذه الأمور لها، ولا يحل له إلزامها بشيء من هذا، وإنما تفعله المرأة تبرعاً، وهي عادة جميلة استمر عليها النساء من الزمن الأول إلى الآن، وإنما الواجب على المرأة شيطان: تمكينها زوجها من نفسها وملازمة بيته.

فالمؤرiri الذي يعرف هذه الحقوق للمرأة يخشى أن يغضب من تقصيرها في أمر لم يكلفها الشارع فيه، فيسخط الله في ذلك، ولكن جاهلية القرون كلها لا تعترف ذلك، فربما غضب عليها، وربما ضربت، بل ربما طلقت لأمر من هذه الأمور التي إنما تفعلها المرأة تبرعاً، ولم يكن قط طول الزمن سبباً في جعل المروآت والتبرعات واجبات تؤولز المرأة على تركها.

شعره وما تمثل به:

قل من العلماء من لم يجرب أن يقول الشعر، فمنهم المقل ومنهم المكثر، وليس شعرهم بالطبع يمكن أن يرفع إلى درجة الشعر بل أكثره أقرب إلى النظم.

ومن قرأ سيرة النووي لا يفترض فيه أن يكون شاعراً. أو على الأقل أن ينظم البيتين أو الثلاثة، فقد تكثفت حياته وامتالاته امتلاء لا مزيد عليه بجد الجد ولب اللب، لذلك أستبعد أن يكون قد نظم بيتاً واحداً، ولكن السخاوي قال(1): وقيل أنه سُمع

(1) ترجمة النووي له 29.
من الشيخ - أي الشعر - قرب وفاته، ووجد في موضع آخر نسبتها إليه، وأنه ليس له نظام غيره:

بشائر قلبي في قدومي عليهم
ويا لسروري يوم سيرني إليهم
وفي رحلتي يصفو مقامي وجدنا
مقام به حط الرحال إليهم
ولا زاد لي إلا يقيني بأنهم
لهم كرم يغني الوفود عليهم

ووجد بخطه أبيات متفرقة ظنها بعضهم أنها من شعره،والأشياء أن يكون ذلك مما تمثل به وليس من نظمه، من ذلك أنه وجد بحاسية نسخة من الروضة من الشعر قوله أو قول غيره:

وأنت الذي أرجوه في الأمر كله
عليك اعتمادي في جميع النوائب
وأنت الذي أدعوك سراً وجهرة
أجرني بلطف من جميع المصائب

وبخط تلميذته العلاء بن العطار أنه وجد بخطه أيضاً:

أموت ويبقى كل ما قد كتبته
فياليت من يقرأ كتابي دعا ليا
لعل إلهي أن يمن بلطفه
ويرحم تقصيري وسوء فعاليا
سفره لزيارة الشافعي:

لم أقرأ هذا الخبر في كتاب من الكتب التي ترجمت للنووي، ولكن مصحح كتاب ترجمة النووي للسخاوي محمود حسن ربيع اتى بهذا الخبر مع أخبار أخرى وقال: إنه نقلها من شرح الأربعين للقليعاوي، وفيه كيف يكون المرء في زيارة قبور الأنباء والعلماء والأولياء الصالحين، ومَن هَم أعلى منه شأنًا وأفضل علمًا ودينا وقويا، وهذا هو الخبر (1):

"سفره– أي النووي – إلى القاهرة لزيارة الإمام الشافعي
رضي الله عنه، فلما عاين قبته وقف هناك، ولم يخطر خطوة لجهته، فقيل له: هل تقدمت؟ فقال: لو كان الإمام حيا ورأيت خيامه، كان يلزمني الوقوف بمجرد رؤيتها. ثم رجع من غير أن يشعر به أحد من أهلها!! رجل عرف حده وقف عند. ولو أنه رحمه الله أنصف نفسه لرأى أنه يمكن أن يكون من خُلص تلامذته ومن أفقهم لو كان حيا زمن الإمام الشافعي، ولكن التواعذ، وإنكار الذات، والأدب العالي، وتقدير إمامه إمام المذهب الشافعي، وهكذا ينبغي احترام الكبار والأدب معهم أمواتاً وأحياء.

(1) ترجمة النووي للسخاوي 82.

155
مدة إقامته بدمشق:
أقام النووي رحمه الله في دمشق نحوًا من ثمانية وعشرين سنة كما يقول ابن العطار (1)، ومعنى هذا أنه حين قدم على دمشق كان عمره ثمانية عشرة سنة.

وحين قدمها لم يترك الإقامة بها كل هذه المدة إلا للحج، أو زيارة الشافعي، أو بلده نوى لصلة أهله، وكل هذه الفترة أمضاه في بيت صغير في مدرسة الرواحية - وقد تقدم وصفها - يتعلم ويعمل، ويؤلف الكتب، إلى أن وافته المنية رحمه الله تعالى.

* * *

---

(1) تحفة الطالبين 3/ أ.
مؤلفاته

تُعرف قيمة العالم وشخصيته بتأليفه، وما ينأزعنا القول أحد ممن له أدنى مُشقة من العلم إلى من له في العلم مرتبة شيخ الشيوخ، بِعظم قيمة مؤلفات النووي رحمه الله، وستعرف ذلك حين نتحدث عن كل كتاب على حدة.

والعظيم حقاً أن النووي عاش نحوًا من ست وأربعين سنة، وترك من المؤلفات ما لو قسم على سني حياته لكان نصيب كل يوم كراستين - كما قدمنا - فإذا علمنا أنه لم يبدأ في طلب العلم إلا في سن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، وأنه أخذ في التصنيف من حدود الستين والست مائة وإلى أن مات، كما يقول الذهبي رحمه الله (1)، أي بعد مكثه في دمشق عشر سنوات، علمنا أي مضاء وقدرة وصلاح وبركة في عمره.

فإذا أضفنا إلى ذلك انشغاله بتعليم الطلبة وقراءة الكتب، عرفنا أنه ما كان يضيع من وقته اللحظة الواحدة، إما في قراءة أو

(1) العبر 5/1362.
تعليم، أو تأليف، أو عبادة، ولقد حكي عنه(1): أنه كان يكتب
حتى تكل يده فتعجزه، فيضع القلم ثم ينشد:

ولكن كان هذا الدم يجري صيحة على غير سعدي فهو دم مضيع

وقال الكمال الأفдовي: كل ذلك- أي تصنيف
مصنفاته- في زمن يسير وعمر قصير.

وقال تلميذه ابن الاعтар(2): وانتفع الناس بسائر البلاد
بتذانيته، وأكبوا على تحصيل تواليفه، حتى رأيت من كان
يشؤها (يبغضها) في حياته، في حياة النووي- متجهداً في
تحصيلها، والانتفاع بها بعد موته، فرحمه الله ورضي عنه،
وجمع بيننا وبينه في جناته.

وقال اليافعي(3): ولا شك أن الإمام محي الدين النووي
مبارك له في عمره، ولقد بلغني أنه حصلت له نظرة جمالية من
نظرة الحق سببانه بعد موته، فظهرت بركتها على كتبه،
فحظيت بقبول العباد والنفع في سائر البلاد.

وقد ألف النووي في علوم شتى: الفقه، والحديث،

(1) السخاوي (244).
(2) تحقية الطالبين 9/أ.
(3) مرآة الجنان 4/185.

108
وشرح الحديث، والمصطلح، واللغة والتراجم، والتوحيد، وغير ذلك وتمتاز مؤلفاته بالوضوح، وصحة التعبير وانسيابه بسهولة وعدم تكلف. يقول الذهبي: إن عبارته أبسط من كلمه.

وأسلوبه أسلوب عصره مع عذوبة في الألفاظ، حتى إن ابن مالك النحوي الشهير اشتهى أن يحفظ المنهج كما سيأتي إعجاباً بما يكتب ويؤلف، وهو إذا أطال لا يدع شاردة ولا واردة مما يتمع ويفيد، وإذا اختصر أتى بما يعجب ويدهش.

وثقة الناس عامتهم وخاصتهم بالنووي وعلمه وورعه، وأمانة وحسن تأليفه، بادروا إلى اقتنااتها ودراستها والعزو إليها، حتى انتشرت في الأفلاج، وحرص عليها الشافعي والحنفي والحنبلي والمالكية، فالنواوي فوق التعصب المذهبي، فإن لم يتخذ المتمذهبون غير مذهبه كتبه أساساً لهم، فلا أقل من أن يرجعوا إليها ليطلعوا على دليل مذهبه الشافعي، وأمًا كتبه غير الفقهية فيستوي فيها الموافق والمخالف.

ومؤلفات النووي ثلاثة أقسام: قسم أنجزه وأتمه، قسم أدركته الوفاة قبل أن يتمه، وقسم غسل أوراقه – أي محاهما – وكانوا يغسلونها لأمر ما ولا يلفتونها لحاجتهم إلى ورقها.

ومنبدأ بما أنجز من مؤلفاته، وهذه هي: شرح مسلم، الروضة،المنهج، رياض الصالحين، الأذكار، التبيان، تحرير التنبيه، تصحيح التنبيه، الإيضاح في المناسك، الإرشاد.
التقريب، الأربعين، بستان العارفين، مناقب الشافعي، مختصر أسد الغابة، الفتاوى، أدب المفتى والمستفتي، مختصر آداب الاست pstmtاء، رؤوس المسائل، تحفة طلاب الفضائل، الترخيص في الإكرام والقيام، مسألة تخميس الغنائم، مختصر التذنيب، مسألة نية الاغتراف، دقائق المنهاج والروضة، التقريب والتسير.

وستتحدث عنها كتاباً كتاباً:

شرح مسلم:
ما عرف الناس شرحاً لكتاب الحديث أتقن وأوفى وأبرع - مع اختصار - من كتاب شرح صحيح مسلم للنووي، فإنه لم يدع لقارئه مهما يبلغ علمه سؤالاً في سره أو في علنه إلا ووجد جوابه فيه، من بحث السند إذا كان فيه ما يبحث، ومن لغة وما يتعلق بها، ومن تسمية لما يجهل اسمه، ومن شرح المعنى، ومنما يستبط من الحديث، ومن قال بظاهرة الحديث ومن خالف وما حجته، مع فوائد كثيرة وعلوم غزيرة لا تستقصى.

يقول رحمه الله في مقدمة الشرح: «وأما صحيح مسلم رحمة الله فقد استخرت الله تعالى الكريم الرؤوف الرحيم في جمع كتاب في شرحه متوسط بين المختصرات والمبسوطات، لا من المختصرات المخلات ولا من المطولات المخلات، ولولا
ضعف الهمم، وقلة الراغبين، وخوف عدم انتشار الكتاب لقلة الطلبة للملحقات، لبسطته فبلغت به ما يزيد على مائة من المجلدات، من غير تكرار ولا زيادات عاطلات، بل ذلك لكثرة فوائده، وعظم عوائده الخفيات والبارزات، وهو جدير بذلك، فإنه كلام أوضح المخلافات صلوات دائمات، لكنى أقتصر على التوسط، وأحرص على ترك الإطاليات، وأؤثر الاختصار في كثير من الحالات، فأذكر فيه إن شاء الله جملًا من علومه الزاهرات من أحكام الأصول، والفروع، والآداب، والإشارات، والزهديات، وبيان نفائس من أصول القواعد الشرعية، وإيضاح معاني الألفاظ اللغوية، وأسماء الرجال، وضبط المشكلات، وبيان أسماء ذوي الكنى، وأسماء أبياء الأبناء والمهمات، والتتبينه على لطيفة من حال بعض الرواة وغيرهم من المذكورين في بعض الأوقات، واستخراج لطائف من خفيات علم الحديث من المتن والأسناد المستفادات، وضبط جمل من الأسماء المؤلفات والمختلفات، والجمع بين الأحاديث التي تختلف ظاهراً، ويوظن بعض من لا يحقق صناعي الحديث والفقه وأصوله كونها متعارضات، وأنبه على ما يحضرني في الحال في الحديث من المسائل العمليات، وأشير إلى الأدلة في كل ذلك إشارات إلا في مواطن الحاجة إلى البسط للضرورة، وأحرص في جميع ذلك على الإبجاز وإيضاح العبارات.

وحيث أنقل شيئاً من أسماء الرجال واللغة وضبط المشكل
والأحكام والمعاني وغيرها من المنقولات، فإن كان مشهوراً لا أضيفه إلى قائله لكثرتهم إلا نادراً لبعض المقاصد الصالحات، وإن كان غريباً أضافته إلى قائله إلا أن أذهل عنه في بعض المواطن لطول الكلام، أو كونه مما تقدم بيانه في الأبواب الماضيات، وإذا تكرر الحديث أو الاسم أو اللفظة من اللغة ونحوها بسطت المقصود منه في أول مواضعه، وإذا مررت على الموضوع الآخر ذكرت أنه تقدم شرحه وبيانه في الباب الفلاني من الأبواب السابقات، وقد أقتصر على بيان تقدمه من غير إضافة، أو أعيد الكلام فيه لبعد الموضوع الأول، أو ارتبط كلام أو نحوه أو غير ذلك من المصاحل المطلوبات.

أقدم في أول الكتاب جملة من المقدمات مما يعظم النفع به إن شاء الله تعالى، ويحتاج إليه طالبو التحقيقات، وأرتب ذلك في فصول متتابعة، ليكون أسهل في مطالعته وأبعد من السامات. (١)

هذا وشرح مسلم من آخر ما ألف، فقد ألفه بعد سنة أربع وسبعين وستمائة، دليل ذلك قوله في صحيح مسلم (٢): "وقد أوضح هذا جزء جمعته في قسمة الغنائم حين دعت الضرورة إليه في أول سنة أربع وسبعين وستمائة" أي قبل وفاته في أقل من

١(١) مقدمة شرح مسلم ٥ - ٦.
٢(٢) شرح مسلم ٥٧/١٢.

١٦٢
سنتين، ألف شرح مسلم، وهذا أمر عسير على غير مثله، ومع ذلك فقد كان يشتغل بالفترة نفسها بتأليف كتاب أو تتمة تأليف، فقد اعتاد أن يؤلف في آن واحد كتبًا عدًا، وهذا من فضل الله خصه الله وأمثاله به، وهذا من أسرار طاعة الله والإخلاص له في السر والعلن.

الروضة "واسمها روضة الطالبين":
من الكتب الكبيرة المعتمدة في المذهب الشافعي "الروضة" اختصرها النووي من كتاب الإمام الراقي "الشرح الكبير". ولقد أثني على الروضة الأئمة، فقال الأذرعي (1): "هي عمدة أتباع المذهب في هذه الأمصار، بل سار ذكرها في النواحي والأقطار، فصارت كتاب المذهب المطول، وإليها المفزع في النقل وعليها المعول، فإنها يلجأ الطالب النبي، وعليها يعتمد الحاكم في أحكامه والمفتي في فتاويه، وما ذاك إلا لحسن النية وإخلاص الطوية". وقال شهاب الدين أحمد بن خفاجة الصفدي (2) - وكان من العلماء العاملين -: رأيت رسول

(1) السخاوي 23 والأذرعي: هو أحمد بن حمدان بن أحمد أبو العباس شهاب الدين الأذرعي، علامة في الفقه الشافعي، ولد بأذراع، وعني بشرح المناهج للنوعي، توفي سنة 783 هـ.
(2) السخاوي 27، وأحمد هذا هو أحمد بن موسى بن خفاجة، فقيه شافعي كبير، كان يأكل من عمل يده، وشرح الأربعين النووية في مجلد، توفي سنة 750 هـ.
الله بمنامي، فقالت: يا رسول الله، ما تقول في النووي؟ قال:
نعم الرجل النووي، فقالت: صنف كتاباً وسماء الروضة فما تقول فيها؟ قال: هي الروضة كما سماها.
وقال العمدان بن كثير: قد زاد فيها تصحيحات ودقائق واختيارات حسان. وكان فراغه من تأليفها في آخر نسخته الموقوفة بالمدرسة المحمودية في يوم الأحد 15 ربيع الأول سنة 169 هـ.
ولقد عنني فيها العلماء اختصاراً وتجريداً وشرحاً ونقداً ودفاعاً فمن اختصرها: القطب محمد بن عبد الصمد السنابطي (1)، والنجم عبد الرحمان بن يوسف الأصفوني (2)، والجمال محمد بن أحمد الشريشي (3)، وفتح الدين محمد بن علي بن إسماعيل البستاني (4)، والشرف ابن المقري اليمني في

(1) كان السنابطي فقيهاً كبيراً. تخرج به المصريون. توفي سنة 722 هـ.
(2) كان الأصفوني بارعاً في الفقه والفرائض وقرأ القراءات، يقول ابن حجر في الدرر الكامنة: وهو الذي اختصر الروضة، وهو مختصر جيد للموضوع، توفي سنة 750 هـ.
(3) الشريشي فقيه شافعي كبير وحكم في دمشق يوماً واحداً ومرض، وتوفي سنة 779 هـ.
(4) في الضوء اللامع الشافعي: من كبار فقهاء الشافعية، شرح الحاوي واختصر الروضة، لم تعلم سنة وفاته وله جوز سنة 800 بقليل.
الروضة وقد كثر تداوله، والشهاب ابن رسلان المقدسي، وغير هؤلاء كثيرون تجد معظمهم في السخاوي.

ومن أفراد زواتها: المجد السنكلوني (1).

وكتب عليها الشيخ سراج الدين البلقيني (2)، وكذلك كتب ولده القاضي جلال الدين حواشي عليها. ومن شرحها أو شرح قطعاً منها الحافظ ابن حجر العسقلاني في آخرين ممن كتب عليها مضمومة مع الشرح الكبير للرافعي أصلها: كالأسنوي والأذرعي والزركشي (3)، وكذا من المتأخرين: فقيه طرابلس الشمس محمد بن يحيى بن أحمد بن زهرة (4).

أما من نقد "الروضة" ولكنه عذر النووي فهو الأذرعي، فقد قال بعد الثناء على كتاب الروضة - وقد تقدم - : غير أنه رحمه الله اختصرها من كتاب الإمام الرافعي رحمه الله من نسخ

(1) في الأصل: السنكلوني، والأكثرون كما أثبتناه، وهو أبو بكر بن إسماعيل بن عبد العزيز السنكلوني، فقيه شافعي أصولي، توفي سنة 740 هـ.

(2) هو عمر بن رسلان بن نصير بن صالح الكتاني البلقيني المصري الشافعي، مجتهد حافظ، توفي سنة 805 هـ.

(3) الزركشي: هو محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي، عالم بفقه الشافعية والأصول، توفي سنة 794 هـ.

(4) هو كما في الضوء اللامع: محمد بن يحيى بن دغرة بن زهرة، كان إماماً عالماً ديناً شيخ الشافعية في بلده، توفي سنة 848 هـ.

165
فيها سقم، فجاء في مواضع منها خلل، فإنه اعتمد في اختصاره على نسخة الإمام البازري وفِيها سقم، واستعان عليها بنحوها فحصل بذلك نقص وخلل يخفى على المبتدي، ويشكل على المنتهي . . . إلى أن قال: واعلم - وفقني الله وإياك لمرضاته - أن لم أقصد بما أُشرت إليه الاعتراض على الشيخ، ولا التعقب لكلامه بالتوهم والإزراء، معاذ الله، وإنما أردت التصيحة له وللمسلمين، وإفادة المتعلمين، فلقد كان من أحرص الناس على ذلك، وبذل وسعه فيه، وإنما سبب ما انُفق له من ذلك ما أُشرت إليه، ودلتلك عليه، هناً مع استغراقه أكثر الأوقات بالطاعات والأوراد والأعمال الزكيات، ولو تأمل ذلك بعض التأمل لوُضح له في وبرهن عليه، ولكنه كان كالجواد المسريع في ميدانه.

أقول: إن ما قاله الأذرعي فيه الإنصاف، وأما إعذار له بأنه اختصر من نسخ فيها سقم، فحصل بذلك نقص وخلل، فهذا بعيد عن النووي كل البعد، لأنه ما اختصره إلا وهو يعلم ما دقًّ فيه وما ظهر، بل هو يكاد يحفظ في صدره رأي كل عالم من علماء الشافعية، ومن هذه شأنه لا يعتذر عنه بهذا. والذي ينبغي أن يقال: إن النووي يكتب ما يكتب كالجواد المسريع في ميدانه كما قال الأذرعي، ثم يدفعه مسودة إلى أن تأتيه فرصة فينظر فيه، ويدرك بقليل النظر ما حصل فيه من النقص أو الخفاء في حال استعجاله في تسويده، ولكن النووي رحمه الله عاجله المنية
قبل أن يتم ذلك، ولما أدرك أنه لا يستطيع إعادة النظر فيه، وخشى أن ينتهي الأجل قبل ذلك، هم قبل وفاته بقليل أن يغسل الروضة (1). كما غسل ألف كراسة من تعليقاته، فقيل له: قد سارت بها الركبان، فقال: في نفسي منها أشياء. ومعنى ذلك أنه أدرك وهو يسأدها أن فيها بعض الخلل وسرجع إليها إن شاء الله، ولكن مشيئة الله لم تمنحه الفرصة، فتوفي قبل أن يرجع إليها، وقبل أن يتم كثيراً مما ألف رحمه الله.

على أن بعض من نقده توهم أشياء والححق فيها ما قاله النووي وهذا ما يأتي:

فمن كتب حواشي على "الروضة" أبو حفص عمر بن أبي الحرم ابن الكناني، وقد وقع بمناقشة الروضة. ووجد هذه الحواشي بعض أصحابه وليس فيها كبير طائل، بل غالباً تعنت - كما يقول ابن حجر (2) - وقد وقف النقفي السبكي (3) على بعضها وأجاب عن كلامه. وكذلك أجاب عما كتب أحدهم عن الروضة ابن التاج السبكي في طبقاته فمما قال: لا يخشى على ذي بصيرة

(1) السخاوي (24).
(2) القدر الكامنة 3/162، وعمر هذا هو ابن أبي الحرم بن عبد الرحمن بن يونس، كان يقال: ما في زمانه أفقه منه، ولكنه كان كثير التعبت كثير الجدل، توفي سنة 738 هـ.
(3) هو علي بن عبد الكافي السبكي الأنصاري شيخ الإسلام في عصره، توفي سنة 756 هـ.
أن الله تبارك وتعالى عناية بالنوري وبمصنفاته، وأستدل على ذلك بما يقع في ضمه فوائد، حتى لا تخلو ترجمته عن الفوائد أو العوائد، فتقول: ربما غيّر لفظاً من ألفاظ الرافعي، إذا تأمله المتأمل استدركه عليه وقال: لم يف بالاختصار، ولا جاء بالمراد، ثم نجده عند التنقيب قد وافق الصواب ونطق بفصل الخطاب. وما يكون من ذلك عن قصد منه لا يعجب منه، بل المختصر ربما غيّر كلام من يختصر كلامه لمثل ذلك وإنما العجب من تغيير يشهد العقل بأنه لم يقصد إليه، ثم وقع فيه على الصواب وله أمثلة، ثم ذكر أمثلة من أرادها فلينظر الطلبات الكبرى (1).

ومن الجدير بالذكر أن النوري رحمه الله ألف على الروضة كتاب (دقائق الروضة) ولم يتمه، ووصل فيه إلى أثناء الصلاة - وهي نفسة (2) - وسماها الإشارات لما وقع في الروضة من الأسماء واللغات.

قال تلميذه ابن العطار: ورأيت بخطه فيها - أي الروضة - أنه ابتدأ في تأليفها يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة 666 هـ وخطها الأحد الخامس عشر شهر ربيع الأول سنة تسعة وستين وهي عمة المذهب الآن.

(1) الجزء (8/893)
(2) كما قال السخاوي (15).
المنهج:

هذا الكتاب في الفقه من أكثر كتب النووي تداولًا بين العلماء والطلبة، اختصره مؤلفه من كتاب «المحرر» للرافعي، وله فيه تصحيحات وخيارات وكان فراغه من تأليفه يوم الخميس 19 رمضان سنة 679 هـ، يقول ابن الطار: وقد حفظه بعد موته خلق كثير (1). وقد ذكره ابن الطار في التحفة في المؤلفات التي لم تكمل وهذا سبق قلم من الناسخ، والصواب أنها كملت.

وذكر التقي السبكي في أول القطعة التي شرحها (3): هذا الكتاب في هذا الوقت - في وقت السبكي - هو عمدة الطلبة، وكثير من الفقهاء في معرفة المذهب.

وقال قاضي صفد: وهو عظيم النفع. وقال ابن الطار (4): تلميذ النووي - وقال لي شيخنا العلامة حجة العرب شيخ النحاة أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن مالك الجياني - النحوي الشهير صاحب الألفية - وذكر المنهج لي بعد أن كان وقف

---

1. السخاوي (13).
2. تحفة الطالبين 11/أ.
3. السخاوي (17).
4. تحفة الطالبين 11/ب.

169
عليه: "والله لو استقبلت من عمري ما استدبرت لحفظته"، وأثني على حسن اختصاره، وعذوبة ألفاظه. وقد امتدح المناهج ومؤلفه ثلة من الشعراء منهم البرهان الجعبري (1) بقوله:

له در إمام زاهد
ورد عرف
أبدى لنا من فتاوى الفقه منهاجا
ألفاظه كعقود الدار ساطعة
على الرياض تزيد الحسن إبهاجا
فاسلكه تحظ بأحكمه تثبيفا على علم المحرر تأويبا، وإدلجا
أحيى لنا الدين (محيه) فأبلسه
بما تنوع من تصنيفه تاجا
بواه ربك في الفردوس منزلة
مع الذي نال في مسراه معراجا
ومنهم الشمس النواجي (2) بقوله:

يمِّم حمَّى النووي ولد بعلومه
وأنْخ بروضته تفرز بحقائِقه

(1) هو إبراهيم بن عمر بن إبراهيم الجعبري، عالم بالقراءات من فقهاء الشافعية، له نظم ونشر، توفي سنة 732 هـ.
(2) هو محمد بن حسن بن علي النواجي، عالم بالأدب له شعر حسن، توفي سنة 859 هـ.
وإصرف لها ساعات وقتك ترتقي
(دراجاً إلى منهاجه ودقائقه)

لقد اهتم العلماء والطلبة بهذا الكتاب الفقهي حتى كثر
الشارعون له والمعلقون، فممن شرحه من الأئمة: البهاء أبو
العباس أحمد بن أبي بكر بن عوام السكندري (٩)، والد المتقي،
والكمال أبو المعالي محمد بن علي بن عبد الواحد الدمشقي (١٠)،
والبرهان إبراهيم بن التاج عبد الرحمن بن إبراهيم الفركاح
(١١)، والشيخ نور الدين فرج بن محمد بن أحمد الأرديلي (١٢)
كتب منه ست مجلدات، والشيخ تقي الدين علي بن عبد الكافي
السكي سماه (الابتهاج)، وصل فيه إلى الطلاق، وشرع ولده
البهاء أحمد (١٣) في إكماله، فمات قبل أن يتم أيضاً، والشيخ

(١) السخاوي (١٦ - ١٧)
(٢) كما في الدرر الكامنة، وأحمد بن أبي بكر هذا من علماء الشافعية،
أسواني الأصل، توفي سنة ٧٢٠ هـ.
(٣) عالم بالقراءات والمذهب الشافعي، وكان واعطاً بارعاً وقفيها نحوباً
شاعراً كما قال ابن كثير وابن حجر، توفي سنة ٧٦٣ هـ.
(٤) إبراهيم هذا هو ابن شيخ النووي تاج الدين الفركاح الفزاري، الذي
كان بينه وبين النووي شيء سيأتي توضيحه والابن كليه من علماء
الشافعية، توفي سنة ٧٢٩ هـ.
(٥) كان يقديماً مشهوراً، يقول ابن حجر: وعلق على المناهج شرحاءً حافلاً
في ست مجلدات ما له نظير في التحقيق، توفي سنة ٧٤٩ هـ.
(٦) هو أحمد بن علي بن عبد الكافي بهاء الدين من علماء الشافعية، توفي
سنة ٧٦٣ هـ.

١٧١
جمال الدين أبو محمد عبد الرحيم بن الحسن الأنسوي وما
أحسنها!! لم يكمله ووصل فيه إلى المساقاة. ومن شرحه من
المتأخرين جلال الدين المحلي (1) وهو شرح متداعل. وهناك من
الشراح والمعنونين كثيرون غير من ذكرتهم، فمن أراد أن
يعتبرهم بشكل تقريبي فليرجع إلى ترجمة النوبي للسخاوي
17 200 -.

وهناك من نظم المنهاج (2) وهو شمس الدين أبو عبد الله
محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الموصلي (3).

رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين:

قد جمع من الحديث النبوي الشريف كتب كثيرة في الوعظ
والاعتبار، ولكن واحده منها لم يبلغ من الانتشار والثقة ما بلغه
رياض الصالحين، فهو كتاب جليل كثير الخبر، جم النفع
والبركة جمع فيه مؤلفه ما ذكره في المقدمة إذ قال: "فرأيت أن
أجمع مختصراً من الأحاديث الصحيحة، مشتملاً على ما يكون
طريقاً لصاحبه إلى الآخرة، ومحصلاً لآدابه الباطنة والظاهرة،

(1) وهو محمد بن أحمد بن محمد، عالم كبير، أصولي مفسر كان مهيباً،
صادعاً بالحق، توفي سنة 864 هـ.
(2) الدارس 94، الأعلام 229/7.
(3) ابن الموصلي أديب عالم بالفلسفة، ولد في بعلبك وتعلم بدمشق، وتوفي
بطرابلس سنة 774 هـ.

172
جامعًا للترغيب والترهيب، وسائر أنواع آداب السالكين من أحاديث الزهد، ورياضات النفوس، وتهذيب الأخلاق، وظهارات القلوب وعلاجها، وصيانة الجوارج وعلاجها وإزالة اعوجاجها، وغير ذلك من مقاصد العارفين. وألزم فيها ألا أذكر إلا حديثاً صحيحاً من الواضحات، مضافاً إلى الكتب الصحيحة المشهورات، وأصدى الأبواب من القرآن العزيز بآيات كريمات، وأوشن ما يحتاج إلى ضبط أو شرح معنى خفي برفاق من التنبيهات.

ولم يشرح هذا الكتاب أحد بعد النووي، حتى جاء عالم كبير الفضل ولد آخر القرن العاشر، هو العلامة محمد بن علي ابن محمد علائ السعدي الشافعي، فشرحه شرحاً حسناً في أربع مجلدات فيها علم كثير، وسماه «دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين» ومما قاله في مقدمةه: وبعد، فهذا ما دعت إليه الحاجة من وضع تعليق لطيف على نهج منيف على كتاب رياض الصالحين إلى أن قال: ولم أقف على كتاب عليه تكون كالدليل للسالك إليه، إلى آخر ما قال.

الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار:

لم يحظ كتاب في الأذكار عند عامة الناس وخاصتهم،

(1) في خلاصة الآثر: محمد علي بن محمد علائ، عالم عصره ومجده، توفي سنة 1057 هـ.
ما حظي به كتاب النووي، فهو كتاب نفيس جليل، ذكر فيه المؤلف عمل اليوم والليلة، وزاد عليهما أذكاراً لمناسبات شتى، مع كثير من الأحكام المناسبة مع الذكر. يقول النووي رحمه الله في مقدمته: «وقد صنف العلماء رضي الله عنهم في عمل اليوم والليلة والدعاء والأذكار كتاباً كثيرة معلومة عند العارفين، ولكنها مطولة بالأسانيد والتكريز، فضعفت عنها همم الطالبين، فقصدت تسهيل ذلك على الراويين، فشرعت في جمع هذا الكتاب مختصراً مقاصد ما ذكرته تقريباً للمعتنين ... إلى أن قال: وأذكر إن شاء الله تعالى نداءً من الأسانيدين ما هو أهم منها، وهو بيان صحيح الأحاديث وحسنها وضعيفها ومنكرها، فإنه مما يفتقر إلى معرفته جميع الناس إلا النادر من المحدثين، وهذا أهم ما يجب الانتباه به ... إلى أن قال: وأمض إليه إن شاء الله الكريم جملةً من النفائس: من علم الحديث ودقائق الفقه، ومهمات القواعد، ورياضات النفوس، والآداب التي تتأكد معرفتها على الساكنين وأذكر جميع ما أذكره موضحاً بحديث يسهل فهله على العوام والمتفقهين ... إلخ ما قال». وكان فراغه من تأليف الأذكار في المحرم سنة سبع وستين وستمائة، قال رحمه الله: سوى أحرف ألحقها، وقال: وأجزت روايته لجميع المسلمين(1)。

(1) السخاوي (12).
وما سمعت أن أحداً شرحها إلا العلامه ابن علان الذي شرح كتاب «رياض الصالحين».

البيان في آداب حملة القرآن:

وهو كتاب صغير ويستغني به عن الكتب الكبيرة، ألفه النووي رحمه الله لأهل دمشق، وقد كانت - كما يقول النووي - لهم عناية بالقرآن الكريم، يقول السخاوي(1): وهو كتاب نفيس لا يستغني عنه، خصوصاً القارئ والمقرئ. وما قاله النووي في مقدمة كتابه: «ورأيت أهل بلدتنا دمشق - حماها الله تعالى وصانها وسائر بلاد الإسلام - مكثرين من الاعتناء بِتلاءمة القرآن العزيز، تعلماً وتعليماً، وعرضاً ودراسة، في جماعات وفرادى، مجتهدين في ذلك بالليالي والأيام، زادهم الله حرصاً عليه، وعلى جميع أنواع الطاعات، مريدين وجه الله ذي الجلال والإكرام، فدعاني ذلك إلى جمع مختصر في آداب حملته وأوصاف حفاظه وطلبه، فقد أوجب الله النصح لكتابه، ومن النصيحة له بيان آداب حملته وطلبه، وإرشادهم إليها وتثبيتهم عليها، وأوثر فيه الاختصار، وأحذر فيه التوويل والإكثار، وأقتصر في كل باب على طرف من أطرافه، وأرمز من كل ضرب من آدابه إلى بعض أصنافه ... إلى أن قال: ثم ما وقع من غريب الأسماء واللغات في الأبواب أفرده بالشرح والضبط.

(1) ترجمة النووي (12).
الوجيز الواضح على ترتيب وقوعه، في باب في آخر الكتاب، ليكمل انتفاع صاحبه ويزول الشك عن طالبه، ويندرج في ضمن ذلك، وفي خلال الأبواب جمل من القواعد، ونفائس من مهمات الفوائد . الخ ما قال».

التحرير في ألفاظ التنبيه:
من أجدود كتب اللغة التي تشرح ما في كتاب التنبيه من ألفاظ لغوية أو مصطلحات فقهية، شبيهة بكتاب المصباح المثير للفيومي، وقد قدمت الحديث عنه في علم النووي باللغة.

يقول ابن الملقن (1) عن التحرير: وما أكثر فوائده، وقال قاضي صفد: وما أكثر فوائده، وما أعظم نفعه، لا يستغني طالب علم عنه.

العمدة في تصحيح التنبيه:
هذا الكتاب من أقدم ما ألف النووي، وموضوعه ملاحظات رآها في التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي، قال ابن الملقن: وما أحسنها!! لكنه أهمل قدره.

وقال غيره: إنه من قديم ما صنف، فلا يعتمد على ما فيه مخالفًا الحديث من كتبه.

(1) هو عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي، سراج الدين، المعروف بأبي الملقن، من أكابر العلماء بالحديث والفقه وتاريخ الرجال، توفي سنة 804 هـ.
الإيضاح في المناسك:

للنوي - رحمه الله - مناسك كثيرة نحو ستة كتب، ومنها منسك خاص بالنسوان، إلا أن الإيضاح فيما يظهر أشملها لكل ما يحتاجه الحاج مع فوائد كثيرة قيمة، يقول رحمه الله في بعض خطبة الكتيب: فمن أهم الأمور بيان أحكامه وإيضاح مناسكه وأقسامه، وذكر مصححاته ومفسداته، وواجباته وآدابه ومسنوناته، وسواقه وواجبه، وظواهره وفائدته، وبيان الحرم ومكة والمسجد والكعبة وما يتعلق بهما من الأحكام وما تميزت به عن سائر بلاد الإسلام، وقد جمعت هذا الكتاب مستوعباً لجميع مقاصدها، مستوفياً لكل ما يحتاج إليه من أصولها وفروعها ومعاقدها، وضمنته من التفاصيل ما لا ينبغي لطالب الحج أن تفوته معرفته. .. الخ ما قال.

وقد شرح هذه المناسك: علي بن عبدالله بن أحمد الحسني المتوفي سنة 911 هـ، وعلق عليه حاشية كبيرة مفيدة للشهاب أحمد بن حجر المكي الهيتمي (1).

الإرشاد والتقرب:

وكلهما في مصطلح الحديث. اختصر النووي كتاب

(1) وهو أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، من كبار فقهاء الشافعية في عصره، ونسبه الهيتمي إلى محلة أبي الهيثم من إقليم الغربية بمصر، توفي سنة 974 هـ.
الإرشاد من كتاب ابن الصلاح، ثم اختصر الإرشاد بكتاب سماه "التقريب والتسير في معرفة سنن البشير النذير".

يقول المؤلف رحمه الله في مقدمته:

وهذا كتاب اختصرته من كتاب الإرشاد الذي اختصرته من "علوم الحديث" للشيخ الإمام الحافظ المحقق المدقق أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح رضي الله عنه، أبلغ فيه في الاختصار إن شاء الله تعالى من غير إخلال بالمقصود، إلخ. هذا وقد انتفع الناس بهذا المختصر من زمن مؤلفه إلى يومنا هذا انتفاعاً كبيراً.

وقد عني بشرحه وتبيين مقاصده وتوسيعه الإمام السيوطي (1) رحمه الله بكتاب "تدريب الراوي"، ومنما قاله في مقدمته:

فرأيت كتاب التقريب والتسير لشيخ الإسلام الحافظ ولي الله تعالى - أبي زكريا النواوي كتاباً جلّ نفعه، وعلا قدره، وكثرة فوائده وغزرت للطالبين موائده.

الأربعين النووية: كتاب صغير، جمع فيه مؤلفه أربعين حديثاً أو اثنيين

(1) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي، إمام حافظ مؤرخ نحوي، أكثر جداً من التصانيف، توفي سنة 911 هـ.
وأربعين مما يحتاجه كل مسلم، بل هي أكثر مداوله من غيرها في كتب الفقه والوعظ والزهد، وانتفع الناس كثيراً بهذا الكتاب وما يزالون، وما برح العلماء ينصحون لطلبهم بحفظه وفهمه، وهو أول الخطوات للاطلاع على حديث رسول الله ﷺ.

بستان العارفين:
 كتاب رقائق، فيه من الخير وكثرة الفوائد مع صغره - الشيء الكثير، وهو صورة كاملة عن مؤلفه: فقيه الزهد والإخلاص، ووصف حقارة الدنيا، وهو متداول معروف، سار فيه على نهج الصفوة المباركة من الصوفية، مع الصدق في القول والعمل.

مناقب الشافعي:
 اختصر فيها كتاب البيهقي وهو في مجلدين، اختصره النووي في مجلد واحد.

مختصر أسد الغابة:
 نبه عليه النووي في مصنفه التقريب.

الفتاوى المسماة "بالمسائل المثورة":
 جمع بعضها تلمسه الملائم له علاء الدين ابن العطار، وهي قيمة وفيها علم كثير، وله فتاوى آخر رتبها بخطه مما لم يذكر في فتاويه.
أدب المفتي والمستفتي:

وهو كتاب نفيس كما قال السخاوي (1)، وقد سبقه تصنيف
هذا أبو عمرو بن الصلاح، ومن قبله: أبو القاسم الصميري (3).

مسائل تخميس الغنائم:

وهو كتاب ألفه في النزاع بينه وبين شيخه الفركاح في
مسألة تخميس الجواري في الحرب (3)، وستقرأ تفصيل هذا
الخلاف في نهاية هذا الفصل.

مختصر التذنيب:

التذنيب للرافعي سماه المنتخب. وقد أسقط منه في آخر
الفصل السادس أوراقاً تزيد على الكراس فلم يختصرها.

دقائق الروضة:

وصل فيها إلى أثناء الصلاة وهي نفيسة، سماها:
الإشارات لما وقع في الروضة من الأسماء واللغات، وهي - على
ما يقول السخاوي - نفيسة.

(1) السخاوي 10 - 11.
(2) وهو عبد الواحد بن الحسين أبو القاسم الصميري، أحد أئمة المذهب
الشافعي، توفي سنة 336 هـ.
(3) السخاوي 8 - 9 و 13.
تحفة طلاب الفضائل:

هذا كتاب ذكر فيه من التفسير والحديث والفقه واللغة، وضوابط، ومسائل من العربية، وغير ذلك، وهو جليل في معناه وأفرد من شرح المذهب.

الترخيص في الإكرام والقيام:

وهي عبارة عن رسالة لطيفة في القيام وصوره وأحكامه.

مختصر أداب الاستسقاء ورؤوس المسائل:

كتابان صغيران جيدان.

* * *

هذه هي الكتب التي أكملها مؤلفها النووي على اليقين، وقد يكون إكمال بعضها على غالب الظن.

وهذا أوان التحدث عما لم يكمله النووي من تأليفه في حياته على ما كتبه ابن العطار تلميذه في ترجمته في كتاب تحفة الطالبين، وهي كما يلي:

المجموع، تهذيب الأسماء واللغات، قطعة من شرح الوسيط، قطعة من شرح البخاري، قطعة بسيرة من شرح سنن أبي داود، قطعة في الإملاء على حديث الأعمال بال_utilis، كتاب الأمالي، الخلاصة في أحاديث الأحكام، قطعة مسؤولة من
طبقات الفقهاء، قطعة من التحقيق في الفقه وصل فيه إلى باب صلاة المسافر، ومسوَّدات كثيرة. إلى هنا قاله ابن العطار (1). وزاد السخاوي ما يلي: دقائق المنهاج ودقائق الروضة، تحقية الطالب النيب، جامع السنة، مهمات الأحكام، الأصول والضوابط.

وستحدث إن شاء الله عنها جميعها كتاباً كتاباً فيما يلي:

المجموع شرح المذهب:
كان من حق هذا الكتاب العظيم أن نقدم الحديث عنه في أول الحديث عن كتبه ولكنه لم يكمل.

وإذا أردنا أن نعطي هذا الكتاب بعض حقه، فلا أقل من أن ننعته بأنه: أعظم كتاب في المذهب الشافعي، ولو أنه كمل على الطرق التي بدأ فيها مؤلفه رحمه الله لكان - بغير جدال - أعظم كتاب في الفقه مطلقاً، إلا ما ألفه آثمة المذاهب. فإذا أراد عالم الكشف عن مسألة، وقرأ ما كتبه المؤلف من تحقيقها والدليل عليها وثبته الدليل أو تضعيفه، وما قاله بعض المذاهب فيها، وأدلته عليهم ومناقشتها، فإنه يخلص إلى نتيجة فيها محررة ناضجة، يرتاح إليها المرء فكراً وعقيدة. هذا عدا ما يشتمل عليه الكتاب من وفائد نادرة في اللغة والحديث والأصول وغير ذلك.

(1) تحقية الطالبين 11/1 أ.
ومن أراد التوسع في معرفة محتويات الكتاب فليقرأ مقدمة النووي على الكتاب. وهكذا طائفة من شهادات العلماء في هذا الكتاب:

قال الذهبي: « إنه في غاية الحسن والجودة» وقال العمامد ابن كثير في طبقات الشافعية له: «سلك فيه - أي في المجموع - طريقة وسطة، حسنة، مهذبة، سهلة، جامعة لأشتات الفضائل وعيون المسائل، ومجامع الأوائل، ومذاهب العلماء ومفردات الفقهاء، وتحرير الألفاظ، ومسائل الأئمة الحافظ، وبيان صحة الحديث من سقمه، ومشهوره من عكسه. وبالجملة فهو كتاب ما رأيت على منواله لأحد من المتقدمين، ولا حذا على مثاله متأخر من المصنفين».

وقال العثيماني قاضي صفد: إنه لا نظير له، لم يصنف مثله، ولكنه ما أكمله، ولا حول ولاقوة إلا بالله، إذ لو أكمله ما احتج إلى غيره، وبه عرف قدره واشتهر فضله.

وكتاب المجموع هذا هو «شرح للمذهب» والمهذب للإمام أبي إسحاق الشيرازي شيخ علماء عصره، ألفه على طريقة ذكر الدليل مع كل مسألة مع استيعابه للمذهب تقريبا، فكان دور النووي في شرحه ما قدمنا بعضه، ولكنه مع الأسف الشديد هلك قبل أن يتمه، ولكنه وصل فيه إلى أثناء كتاب الربا في تسع مجلدات، ثم جاء التقي السبكي - من كبار علماء الشافعية في
القرن الثامن - فحاول أن يتمه ولكنه أدركته منيته حين أتم منه ثلاث مجلدات فقط. وشرح السبكي - مع الفرق الواضح بينه وبين شرح النووي - جامع متين نافع، وقد ذكر في مقدمته عذرته بعجزه عن اللحاق بالنووي، فقال: «أما بعد، فقد رغب إلي بعض الأصحاب والأحباب في أن أكمل شرح المذهب للكتاب الإمام العلامة علم الزهاد، وقدوة العباد، واحد عصره، وهو دهره، محيي علوم الأولين، وممهد سنن الصالحين، أبي زكريا النووي، رحمه الله تعالى، وطالبت رغبته إلي، وكثير إلحاحه عليٍّ، وأنا في ذلك قدُم رجلاً وأوُل أخري، وأستهون الخطب وأراه شيئاً إمراً، وهو في ذلك لا يقبل عذراً.

وأقول: قد يكون تعرضي لذلك مع تقعدي عن مقام هذا الشرح إساءة إليه وجنية مني عليه، وأني أنهض بما نهض به، وقد أسف بالتأييد، وساعده المقادير، فقربت منه كل بعيد.

الأوفي، فمن يكون اجتمعت فيه هذه الخلال الثلاث، أنَّى يضاهيه أو يدانيه من ليس فيه واحدة منها؟ فنسأل الله تعالى أن يحسن نياتنا وأن يمدها بمعونته وعونه....

تهذيب الأسماء واللغات:
سبق وتحدثنا عن هذا الكتاب في علم النووي باللغة، ويمتاز هذا الكتاب بالضبط والتحقيق والتحري عن الصواب، وهو كاسمته، ذكر الأسماء وضبطها وترجم أصحابها، وقلت منهجها وضبطها ومولدها، وقد توفي عنه ولم يتهما ولكنه ترك قطعة كبيرة منه، ثم إنه تركه مسودة فيضه تليميده المزي رحمهما لله تعالى. ويقول النووي في المجموع (1): وقد بين ذلك في تهذيب الأسماء واللغات بياناً حسنة، وهو كتاب جليل لا يستغني طالب علم عن العلم كلها عن مثله. قال قاضي صفد: وما أكثر فوائده وما أعم نفعه، لا يستغني طالب علم عنه.

شرح الوسيط:
الوسيط: للإمام الغزالي هو من الكتب المعتمدة في المذهب الشافعي، فشرح منه النووي رحمه الله قطعة جيدة.

شرح البخاري:
يقول النووي في مقدمة شرح صحيح البخاري بعد كلام:

(1) المجموع 112/1.

١٨٥
وأما صحيح البخاري فها أنا أشرع في جمع كتاب في شرحه، متوسط بين المختصرات والمبسوطات لا من المختصرات المخلات ولا من المبسوطات المملات، ولولا ضعف الهمم وقلة الراغبين في المبسوط لبلغته ما يزيد على مائة من المجلدات مع اجتناب التكرار والزيادات العاطلات، بل ذلك لكثره فوائده وعظام عوائده الخفيات والبارزات، لكنني أقتصر على التوسط، وأحرص على ترك الإطارات، وأوثر الاختصار في كثير من الحالات. فأذكر إن شاء الله تعالى جملة من علومه الزهيدات من أحكام الأصول والفروع والآداب والإشارات الزهيدات، وبيان من أصول القواعد الشرعيات، وإيضاح معاني الألفاظ اللغوية، وأسماء الرجال وضبط المشكلات، وأسماء ذوي الكنى وأسماء ذوي الآباء والمهمات، والتنبيه على لطفية من حال بعض الرواة وغيرهم ... إلخ. ولكنه رحمه الله أدركه الموت قبل أن يدرك أمله في إتمامه، ولم يشرح إلا أوله، ووصل فيه إلى باب قول النبي ﷺ: الدين النصيحة وأورد فيه حديثين وشرحهما وقضي إلى ربه سبحانه.

شرح أبي داود:

شرح منه قطعة، وصل فيها إلى أثناء الوضوء، وسماه: الإيجاز يقول السخاوي (1): وسمعت أن زاهد عصره الشهاب

(1) ترجمة النووي 12.
ابن رسلان أودعها برمتها في شرحه الذي كتبه على السنن وبنى عليها(1).

الإملاء على حديث الأعمال بالنيات:

قطعة من الإملاء على حديث الأعمال بالنيات.

كتاب الأمالي:

سمى بعضهم في تصانيفه "كتاب الأمالي" في الحديث، في أوراق، وقالوا: إنه مهم نفس صنفه قرب موته. يقول السخاوي: فلا أدرى أهو الإملاء أو غيره(2).

الخلاصة في أحاديث الأحكام:

وصل فيها إلى أثناء الزكاة، قال ابن الملقن(3): رأيتها بخطه ولو كملت كانت في بابها عديمة التظير، وقال غيره: إنه لا يستغني المحدث عنها، خصوصاً الفقيه، وهذه الخلاصة بخط المؤلف في كتب أوقاف الجمالية.

طبقات الفقهاء:

اختصر هذا الكتاب من كتاب ابن الصلاح، وزاد عليه

(1) هذا كلام في بعض الشك، فما رأيت أحداً نسب له شرحًا لسنن أبي داود.
(2) السخاوي 12.
(3) سبقت ترجمته في صفحة 176.
أسماء نبه عليها في ذيل كتابه، وكان ينبغي ذكر هذا الكتاب فيما أكمله من كتب وهو الأرجح، بدليل أن السخاوي قال: وزاد عليه أسماء نبه عليها في ذيل كتابه، ولا يصل المؤلف إلى الذيل ويكتب فيه إلا وقد أتم الكتاب، لكن ابن العطار تلميذ النووي عده في جملة الكتاب التي لم يتم تأليفها. ومات النووي-رحمه الله-كتابه هذا مسودة وبيضه الحافظ الجمال المزي.

التحقيق:

في الفقه، وصل فيه إلى أثناء باب صلاة المسافر. قال السخاوي: هو- كما قال ابن الملقن- نفيس، قال ابن الملقن: وكأنه مختصر شرح المهذب، وقال غيره: إنه ذكر فيه مسائل كثيرة محضة، وقواعد وضوابط لم يذكرها في الروضة.

تحفة الطالب النبيه:

يقول السخاوي: وهو غير البند الذي رأيته في مجلد فإنه شرح فيه مواضيع من جميع كتاب النبيه لأبي إسحاق الشيرازي، ولم يتمه، وصل فيه إلى أثناء باب الحيض وهو من أوائل ما صنف(1).

جامع السنة: شرع في أوائله، وكتب منه دون كراسة.

(1) تحفة الطالبين 1/11أ.
المهمات الأحكام:
قال بعضهم: هو قريب من التحقيق في كثرة الأحكام، لكنه لم يذكر فيه خلافاً، وصل فيه إلى أثناء طهارة البدن والثوب.

الأصول والضوابط:
هي أوراق لطيفة تشتمل على شيء من قواعد الفقه، وضوابط لذكر العقود اللازمة والجائزة، وما هو تقريب أو تحديد و نحو ذلك (١).

وزاد مصنف «هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين» من مؤلفات النووي ما يلي:

الإشارات في بيان الأسماء المهمات في متن الأسانيد، تحفة الوالد ورغبة الرائد، خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام، روح المسائل في الفروع، عيون المسائل المهمة، غيث التفع في القراءات السبع، المبهم من حروف المعجم، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان.

(١) السخاوي ١٥
هذا ما استطعنا جمعه مما ألفه أو بدأ بتأليفه، أو سار
بتأليفه شوطًا يذكر، وقد تركنا ذكر ما بدأ به في صفحات قليلة،
على أنه - رحمه الله - غسل كثيرًا من مؤلفاته، ولم يبق إلا ما قيل
له فيه: إن هذا مما سارت به الروكبان، مخافة عدم الإخلاص في
tأليف، وبعضها كتبها مسودة ولم يتح له الوقت لإعادة النظر
فيها.

يقول ابن العطار تلميذه(1): ولقد أمرني مرة ببيع
كراريس - نحو ألف كراس - بخطه، وأمرني بأن أقف على غسلها
في الورقة، وخوفني إن خالفت أمره في ذلك، فما أمكنني إلا
طاعته وإلى الآن في قلبي منها حسرة.

* * *

(1) تحفة الطالبين 11/ب.

۱۹۰
تلاميذه

يقول تلميذه ابن العطار\(^1\): وسمع منه خلق كثير من العلماء والحفاظ والصدور والرؤساء، وتخرج به خلق كثير من الفقهاء، وسار علمه وفتاويه في الآفاق . . الخ ما قال.

ودونك بعضاً من تلاميذه:

منهم: خادمه العلامة علاء الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن داوود الدمشقي، عرف بابن العطار، الذي كان لشدة ملازمته له وتحقيقه به يقال له «مختصر النووي».

ويقول ابن العطار\(^2\): وكان رحمه الله رفيقاً بي، شفيقاً علي، لا يمكِّن أحداً من خدمته غيرى، على جهد مني في طلب ذلك منه، مع مراقبته لي رضي الله عنه في حركاتي وسكناتي، ولطفه بي في جميع ذلك، وتواضعه معي في جميع الحالات، وتأديبه لي في كل شيء حتى الخطرات، وأعجز عن حصر ذلك.

\(^1\) تحفة الطلابين ٩ / أ.
\(^2\) المرجع السابق ٥ / ب.
وقرأت عليه كثيراً من تصانيفه ضبطاً وإتقاناً، وأذن لي رضي الله عنه في إصلاح ما يقع لي من تصانيفه، فأصلحت بحضرته أشياء فكتبه بخطه وأقرني عليه، ودفع إلي ورقة بعدة الكتب التي كانت يكتب منها ويصنف بخطه، وقال لي: إذا انتقلت إلى الله تعالى، فأتمنم شرح المذهب من هذه الكتب، فلم يقدّر ذلك لي. وكانت مدة صحبتي له مقتصرًا عليه دون غيره، من أول سنة سبعين وستمائة وقبلها بيشر إلى حين وفاته - أي نحو ست سنين -.

وممن أخذ عنه: الصدر الرئيس الفاضل أبو العباس أحمد ابن إبراهيم بن مصعب،قرأ عليه قطعة من المنهاج.

والشمس محمد بن أبي بكر بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن النقيب، وهو آخر من كان من أعيان أصحاب النووي.

والبدر محمد بن إبراهيم بن تعد الله بن جماعة.

والشهاب محمد بن عبد الخالق بن عثمان بن مزهر الأنصاري الديمشقي المقري.

وشهاب الدين أحمد بن محمد بن عباس بن جعوان.

والفقيه المقرري أبو العباس أحمد الضرير الواسطي الملقب بالخلال.

والمحمدي إسماعيل بن إبراهيم بن سالم بن الخباز.

والشيخ الناسك جبريل الكردي.
وأمين الدين سالم بن أبي الدرب.
والقاضي جمال الدين سليمان بن عمر بن سالم الزرعي.
والقاضي صدر الدين سليمان بن هلال الجعفري، خطيب داريا.
وأبو الفرج عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحميد بن عبد الهادي المقدسي.
والعلامة علي بن أيوب بن مصهر المقدسي الذي نسخ المنهاج بخطه، وحرره ضبطاً وإتقاناً وهو بخطه في المحمودية.
ومحي الدين أبو زكريا يحيى بن الفاضل جمال الدين.
إسحاقي بن خليل.
وعبد الرحمن بن محمد بن يوسف السهمودي الخطيب الأديب تفقه بلده، ودخل دمشق فأخذ بها عن الشيخ محي الدين النووي.
والقاضي ضياء الدين علي بن سليم.
وشمس الدين البيطار المعبر.
وشهاب الدين الإربدي.
وعبد الله بن محمد بن علي، قال النووي عنه: وهو من فضلاء أصحابنا المتأخرين.
وهشام الدين أبو حفص عمر بن كثير والد المحدث.

١٩٣
المؤرخ المشهور بابن كثير (1)

من أخذ عنه بالإجازة:

هناك من العلماء من أخذ عن النووي بالإجازة، ولا تغني الإجازة عن التلقي، وإنما يعمد إليها غالباً من يمنعه من منع التلقي، وليست الإجازة عند كثير من العلماء مما يُعند به، يقول السخاوي: ولست تباعاً لشيخي أحب العمل بها، وفيما تحملناه - والله الحمد - غنية عن التوسع فيها (2).

فمن أخذ عن النووي بالإجازة: الشرف محمد بن محمد محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الحزامي السكندري أخو التاج ابن عطاء الله (صاحب الحكم).

وأبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن أبي عبد الله المخيلي، وكلاهما عن النووي إجازة عامة. وأجاز أيضاً: لجمال الدين بن العطار، ولأبي نعيم أحمد بن التقي عبيد الأصغردي، ولأبي العباس أحمد بن كشتفتي بن عبد الله، ولأبي بكر بن قاسم ابن

(1) استخلصنا أسماء تلاميذه من ترجمة السخاوي، الدور الكاملة.

(2) ترجمة النووي للسخاوي 33.

194
أبي بكر الرحبى، وللسيف أبي بكر بن محمد بن يحيى بن سنقد المعالي، وللشمس أبي عبدالله محمد بن أحمد بن إبراهيم بن حيدر بن القماح، ولأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أبي البحرات النعماني، ولناصر الدين محمد بن كشغدي أخي الماضي، وللصدر أبي الفتح محمد بن محمد بن إبراهيم الميدومي (1).

(1) ترجمة النووي: 30 - 31 - 32.
(2) مفتاح السعادة: 398/1.
(3) هو أحمد بن الحافظ الكبير عبد الرحيم بن الحسين، الحافظ الإمام الفقيه الأصولي، أبو زرعة، توفي سنة 826 هـ.

هذا وقد أجاز رواية شرح مسلم لجميع المسلمين (2).

استورطة قراءة الجن على النووي:

حكى العلامة الفقيه الشرف أبو زكريا المناويا رحمه الله، عن الوالي أبي زرعة العراقي (3) مذاكرة أنه بلغه: أن الجان كانت تقرأ عليه، وأن بعض طلبه بينما هو عنده في خلوته إذ دخل عليه ثعبان ففرز الطالب فأخذ الشيخ في تسكن روعه، وعرف بأنه من طلبة العلم من الجان، وأنه قال له: أما نهيتكم عن التزوي بهذا، وأنه آخر بينهما.

وعندما أراد الجن التوجه لمحلة بغداد أو العراق، سأل الطالب الشيخ الإذن له في التوجه معه للتفرج ببلاده، وأن الشيخ
أذن له في ذلك، ووصاه به، وأنه تزوي في صورة بيّر، وأمر الإنسان أن يركبه، وقال له: إن أحسنت بالبرد الشديد فاغمزني، وأنه علا به في الجو حتى أحس بالبرد، فغمز فهبط بذلك المكان المقصود، وأنه أقام عندهم بسيراً، ثم رجعا مستصحبين ما كان الشيخ أوصاهما به من فاكهة ذلك المكان. 

يقول السخاوي: وهذه الحكاية منقطعة، ولا استبعاد لصحتها. والله تعالى أعلم.

وأقول: لم يرو أحدٌ ممن ترجم للنووي هذه القصة، حتى تلمذته ابن العطار الذي ذكر كثيراً من دقائق حياته، ولا الذهبى وقد ذكر النووي في جميع كتبه في التراجم، ولم يروها إلا السخاوي، ومع ذلك قال: إنها منقطعة. والنووي الذي امتنع عن أكل فاكهة الشام ورعا وزهداً، مع شهرة فاكهة الشام، أيوصي تلمذته أن يأتيه بفاكهة ذلك المكان من العراق! على أن بين وفاة الرواي أبي زرعة وبين وفاة النووي مائة وخمسين سنة، فلا شك عندي أن القصة ملتفة وموضوعة، وإنما ذكرتها لأنبه على ذلك.
وفاته ومافيقل فيه:

وفاته رضي الله عنه:

في الثالث الأخير من ليلة الأربعاء في الرابع والعشرين (1) من رجب، سنة ست وسبعين وستمائة، أفل قمر العلم والدين، والزهد والعبادة، النواوي رحمه الله تعالى.

يقول التاج السبكي: لما مات النواوي بنوى ارتجت دمشق وما حولها بالبكاء، وتأسف عليه المسلمون أصفاً شديداً، وأحيوا ليالي كثيرة لسنته (2).

وهو قصة وفاته كما رواها تلميذه علاء الدين بن العطار، يقول (3):

وكنت جالساً بين يديه قبل انتقاله بشهرين أو نحوهما وإذا

(1) وهناك من قال في الرابع عشر من رجب كما في السخاوي، والأكثرون على أن وفاته في الرابع والعشرين كما قلنا.

(2) تحفة الطالبين 2/ب.

(3) نفس المرجع.

١٩٧
بفقير قد دخل عليه، وقال للشيخ: فلان من بلاد صرخد سلم عليك، وأرسل معه هذا الإبريق لك، فقبله الشيخ وأمرني بوضعه في بيت حوائجه، فتعجبت منه لقبوله، فشعر بتعجبي فقال: أرسل إلي بعض الفقراء زربولا، وهذا إبريق، فهذه آلة السفر.

ثم بعد أيام سيرة كنت عنده، فقال لي: قد أذن لي في السفر، فقلت: كيف أذن لك؟ قال: أنا جالس هنا - يعني بيه في المدرسة الرواحية، وقدماه طاقة مشرفة عليها مستقبلة القبلة - إذ مر علي شخص في الهواء من هنا، ومر كذا يشير من غرب المدرسة إلى شرقها وقال: قم سافر لزيارة بيت المقدس، وكنت حملت كلام الشيخ على سفر العادة، فإذا هو السفر الحقيقي، ثم قال لي: قم حتى نوذع أصحابنا وأحبابنا، فخرجت معه إلى القبور التي دفن فيها بعض مشايخه، فزارهم وقرأ شيئاً وبكى، ثم زار أصحابه الأحياء والشيخ يوسف الفقاعي والشيخ محمد الإخيمي، وشيخنا الشيخ سماح الدين بن أبي عمر شيخ الحنابلة ثم سافر صبيحة ذلك اليوم، وجرى لي معه وقائع، ورأيت منه أموراً تحتمل مجلدات، فسار إلى نوى وزار القدس والخليل عليه السلام، ثم عاد إلى نوى، ومرض عقب زيارته لها في بيت والده، فبلغني مرضه فذهبت من دمشق لعيادته، ففرح رحمه الله بذلك، ثم قال لي ارجع إلى أهلك، وودعته وقد أشرف على العافية يوم السبت العشرين من رجب سنة ست

198
وسبعين وستمائة، ثم توفي في ليلة الأربعاء الرابع والعشرين من رجب.

فبينا أنا نائم تلك الليلة إذا مناد ينادي على سدة جامع دمشق في يوم الجمعة: الصلاة على الشيخ ركن الدين الموقع، فصاح الناس لذلك النداء، فاستيقظت فقلت: إذا الله فأنى إليه راجعون، فلم يكن إلا ليلة الجمعة عشية الخميس إذ جاء الخبر بموته رحمه الله، فنودي يوم الجمعة عقب الصلاة بموته، وصلي عليه بجامع دمشق. فتأسف المسلمون عليه تأسفاً بليغاً، الخاص والعام، والمادر والذام.

ودفن رحمه الله في قريته نوى، وقبره ظاهر يزائ، وكان رحمه الله يريد أن يكون قبره على السنة، فيه علامة الفقر إلى الله، وعلامة الزهد الذي عاشه في دنياه، ولكن الموت لم يمهله حتى يوصي بذلك، وقومه يريدون رفع شأنه، وكل من لا يعرف، أو يتجاهل، يظن أن رفع الشأن تكون بتعظيم القبور بتجصيصها أو تزيينها ببلاط، أو تحويطها أو رفع المساجد عليها، وكل هذا منعه الشارع فالمقابر وقف على المسلمين، ولا يحق لأحد فيها أكثر من موضوع تمديد جسده، وهذا ما صرح بمعناه النووي عليه رحمة الله في شرحه لمسلم، قلت: كان يريد رحمه الله أن يكون قبره على السنة، وقومه يريدون بناء قبة عليه، ولكن الله أبى إلا ما يريد,

199
فإنه لما توفي رحمه الله تعالى ودفن، أراد أهله واقاربه وجيرانه أن يتبنوا عليه ضريح قبة، وأجمعوا على ذلك، إذ جاء رحمه الله في النوم إلى أكبر امرأة من قرابته أظنه عمته وقال لها: قولي لأخي والجماعة لا يفعلون هذا الذي قد عزموا عليه من البنيان، فإنه كلما بنوا شيئا يهدم عليهم، فانتبهت منزعجة، فقصت عليهم الروح، فامتنعوا من البنيان، وحوطوا على قبره بحجارة تمنع الدواب وغيرها. وما يدل على صدق هذه الروح أنه(1) في أواخر القرن العاشر، بنى الأمير الكبير صاحب القدر الخطير قانصوه الساعدي كبير الحاج سابقاً رحمه الله تعالى على قبر الشيخ رضي الله عنه قبة مراراً، فوقعت من غير هدم.

ولا تزال هذه العقيدة سائدة بين أهل نوى، وهي أنهم كلما بنوا سقفاً على قبره يرون أنه لا بد أن يهدم، فهم يخوفون دائماً أن يجعلوا لقبره سقفاً.

ومما أثر من خبره أنه(3) لما دنا أجله، ودعا الحق، رد الكتب المستعارة عنده من الأوقاف جميعها.

وقال اللخمي(4) في ترجمته المفردة عن غير واحد من

(1) كما روى تلميذه ابن العطار في كتابه تحفة الطالبين 42.
(2) السخاوي 75.
(3) الطبقات الكبرى 398/8.
(4) السخاوي 75.

200
العلماء بدمشق: أنه لما خرج منها إلى نوا، خرج معه جماعة من
العلماء وغيرهم لظاهر دمشق، وسألوه: متى الاجتماع؟ فقال:
بعد مائتي سنة، فعلموا أنه عنى القيادة، وسافر إلى أبوه ثم
مرض.
وقال القطب اليونيني(1): ولما وصل الخبر بوفاته لدمشق،
توجه قاضي القضاة عز الدين محمد بن الصائغ(2)، وجماعة من
أصحابه إلى نوى للصلاة على قبره.
قال: وكان يسأل أن يموت بأرض فلسطين، فاستجاب الله
تعالى منه.
وكذا قال ابن العطار(3): سرت إلى نوا صحبة قاضي
القضاة أبي المفاخر محمد بن عبد القادر الأنصاري لتعزية والده
وأقاربه، وأقتمت عنهم أياماً.
ما رئتي به رحمه الله:
يقولالذهبي(4): ورثاه غير واحد. يبلغون عشرين نسناً
بأكثر من ستمائة بيت.

(1) السخاوي 75.
(2) وهو محمد بن عبد القادر بن عبد الخاليق، توفي سنة 683 هـ.
(3) السخاوي 75.
(4) المصدر نفسه.

٢٠١
ويقول ابن العطار (١) ورثاه كثيرون: منهم شيخ الأدب أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبي شاكر الحنفي الربيلي، رثاه بقصيدتين، وسنذكر إحداهما كاملة في نهاية هذا العرض.

ومنهم الصدر الرئيس الفاضل أبو العباس أحمد بن إبراهيم ابن مصعب، وأول قصيدته:

أكتم حزني والمدمع تبديه
لقد امري كل البرية تبكيه

ومنهم الأديب نجم الدين أبو العباس أحمد بن عماد الدين:
محمد بن أمين الدين التغلبي، وأول مرثيته:
عيني جودا بالدموع الهوامل
وجودا بها كالساريات الهواطل

ورثاه بعض فضلاء الحنفية، وأول مرثيته:
مصاب أصاب القلب والجفن أرقاً
وخطب أتى بالحزن والصبر فرقاً

ومن رثاه الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد المنيحي أحد فقهاء المدرسة الناصرية، وأول مرثيته:

(١) آخر تحفة الطالبين.
سبل العلوم تقطعُت أسبابها
وعطلت ممن حليها طلابها
وممن رثاء المجد أبو الفضل يوسف بن محمد بن عبد الله
الكاتب الأديب المصري ثم الدمشقي، وأول مرثيه:
الحمد لله العظيم الهادئ
جلت محامده عن التعداد
وممن رثاه الأديب المحدث أبو الحسن علي بن إبراهيم بن
المضرن الكندي، وأول مرثيه:
لهفي عليه سيدا وحصاراً
سنداً لأعلام الهداة وظهروا
وممن رثاه الشيخ أبو محمد إسماعيل البسطي بقصيدة
تعدادها واحد وثلاثون بيتاً، أولها:
رزة محي الدين قد عمت الورى
فلست ترى إلا حزيناً مفكراً
وممن رثاه بقصيدة تعدادها عشرة أبيات: تلميذه الفقيه
المقرئ أبو العباس أحمد الضرير الواسطي الملقب بالخلال،
وأولها:
لقد ذهب الخبر الجليل الموفِّق
وعدنا حيارة والدموع تدفق
203
وممن رثاه بعض الأخوان - كما يقول ابن العطار - بقصيدة تعدادها واحد وأربعون بيتاً وأولها:

شُؤون دمعي ليس الصبر من شأني
سُحِي أسى لا تشُح بالدم القاني
وممن رثاه بعض المحبين - كما يقول ابن العطار - بقصيدة تعدادها أربعون بيتاً وأولها:

وجدَّت عليك شرائع الإسلام
أسفاً يلازمها مدى الأيام
وممن رثاه المهذب عمر بن علي الزرعي بقصيدة تعدادها واحد وعشرون بيتاً، وأولها:

أي عذر لمقلة غير عبراً
بعد يحيى ومجهدة غير حمرًا
وممن رثاه الحسين بن صدقة الموصلي بقصيدة تعدادها عشرة أبيات، أولها:

خطب ألم وهت له الأصلاد
وتَفْطَرَت بهجَنْومهُ الأطوار
ومن رثاه بعض المحبين - كما يقول ابن العطار ولم يسمه - بقصيدة تعدادها أربعة وعشرون بيتاً، وأولها:
فقلبه مقرج و بكى عليك فدمعه مسفوح
ورثاه بعض الإخوان - كما يقول ابن العطار - بقصيدة تعدادها ستة وعشرون بيتاً، وأولها:

سيف الجمام على البرية متضا صبراً و تسليماً بما حكم القضا
وممن رثاه الفاضل أبو محمد عبد الله الأندلسي بقصيدة تعدادها أربعون بيتاً، وأولها:

سل زبَّع دار قد خلت أن أخبرا
عن أهلها وبأهلها ما قد جرى
ورثاه بعض المدرسین بالبادرائية بدمشق بقصيدة تعدادها خمسة أبيات أولها:

سقي قبر يحيى في نوى كل مسيل
من الغيث عرَّاض البوارق هتان
ورثاه بعض المحبین في الله - كما يقول ابن العطار - بقصيدة تعدادها تسعة أبيات وأولها:

بكى العلم حیناً بعد حين على يحيى
والى يميناً بعده لم يكن يحيا

(1) لم أتبين أول البيت في مصورة المجمع لابن العطار.

٢٠٥
ورثاه بعض الفقهاء المحبين في الله تعالى رحمه الله تعالى
بقصيدة تعدادها سبعة وثلاثون بيتاً أولها:

بانت مسراًنا مذ بان إخوان
فأين معتبر فالدهر خوان

هذه المراثي بتمامها مبثوطة في تحفة الطالبين في ترجمة
النووي. ولا بد هنا من أن نذكر قصيدة كاملة من رثائه؛ لنعلم
مقدار تأثر الخصية والعامة على وفاة الإمام النووي. وهذه
المراثية هي لمحمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبي شاكر
الحنفي الأربلي الذي تقدم ذكره وهذا نصها كاملاً:

عزّ العزاء وعم الحادث الجلل
وخاب بالموت في تعميرك الأمل

واستوحشت بعدما كنت الأنيس لها
وساءها فقدك الأصحار والأصل

وكنت للدين نوراً يستضاء به
مسدداً منك فيه القول والعمل

وكنت تتلقى كتاب الله معتبرًا
لا يعتريك على تكراره ملل

وكنت في سنة المختار مجتهداً
وأنت باليمن والتوقيع مشتمل

٢٠٦
وكنت زيناً لأهل العلم، مفتخرًا 
على جديد كساهم ثوبك السماعُ 
وكنت أسبغهم ظلالًا إذا استعرت 
هواجر الجهل والأطلال ينتقل 
كماك ربك أوصافاً مجمولة 
يضيق عن حصرها التفصيل والجمل 
أسلى كمالك عن قوم مضوا بدلًا 
وعن كمالك لا مثل ولا بدل 
فمثل فقدك ترتع العقول له 
وققد مثلك جرح ليس بندمل 
زهدت في هذه الدنيا وزخرفها 
عزمًا وحزمة ومضروب بك المثل 
أعربت عنها احتقارًا غير محتمل 
وأنت بالسعي في أخراك محتمل 
عذفت عن شهوات ما لعزم فتى 
بها سواك إذا عنثت له قبل 
أسهرت في العلم عيناً لم تدق سنة 
إلا وأنت به في الحكم مشتغل 
يا لهف حفل عظيم كنت بهجنّه 
وحلّة فعمراً بعدك العطل 
207
وطالبو العلم من دان ومغترب
نالوا يمنك منه فوق ما أملوا
حاروا غيبة هادئهم وضاقت بهم
لفرط حزن عليه السهل والجبيل
تُرى درى تربى من غيابه به
أو نعشه من على أعواده حملوا
جدهم دهراً وعاذاleurهم
بلاعج الوجود عن أشغالهم شغل
يا محي الدين كم غادرت من كبد
حرى عليك وعين دمعها هطل
وكم مقام كحد السيف لا جلد
يقوى على هوله فيه ولا جدل
أمرت فيه بامر الله منضيناً
سيفاً من العزم لم يصنع له خلل
وكم تواضعت عن فضل وعن شرف
وهمة هامة الجوزاء تن تعمل
عالجت نفسك والأدواء شاملة
حتى استقامت ونالت العقل
بلغت بالتعب الفاني رضى ملك
ثوابه في جنات الخلد متصلاً

208
ضيف الكريم جدير أن يضاف له إلى الكرامة من ألطافه نزل
بررت أهليك في داريك محتسباً
فـُجعت بالأنس ليلاً كنت ساهره
أكثراً فيك الحزن والجذل
لـم يعف الله والنوم قد خيطت به المقلا
وإلى متى بعـرور نطنـشـن ولا
لا زال مشواك مشوى كل عـارفة
وريدة النضر من سحب الرضا خضل
لا حمايا من حمام جحـفل لـجـب
بلا حصنـون منيعـات ولا قـلـل
يا لاهياً لاهياً عن هول مصرفه
وضاحك السن منه يضحـك الأجل
لا تخل نفسك من زاد فإنك من
 حين الولاد مع الأنفاس مرتحل

٢٠٩
الحمد لله في البدء والختام، والصلاة والسلام على خاتم النبيين
وخير الأنام.

وبعد:

فهذه الكلمات في هذا الكتاب ملخص لحياة الإمام النووي العلمية والروحية والخاصة، وقليل مجحف أن يترجم إمام من كبار أئمة القرن السابع بكتاب صغير، وتلميذه العلاء بن العطار يقول: لقد رأيت منه أموراً تحمل مجلدات. ومعذرتنا أنا كتبت ما وجدناه في بطون كتب التراجم وفي رساليتي ابن العطار والسخاوي، ولم نأل جهداً في ذلك.

والصفة التي تجمع خصائصه كلها هي: أنه لم يعمل لدنياه قط، وما أخذ من دنياه إلا بمقدار ما يدفع الهمزة عن نفسه، ثم أنفق ملكاته وعقله وقواه في السعي إلى نجاته يوم الفزع الأكبر، ورأى - ورأبه الحق - أن سبيل ذلك أن يبلغ من العلوم الشرعية ووسائلها مبلغ الكمال، فالعلم ذاته عبادة إن قصد به وجه الله، وقد أشرنا إلى قوله في
ذلك في غضون الكتاب. ويرحم الله الإمام الغزالي إذ يقول في مقدمة كتابه المستقصي: «الطاعة طاعتان: عمل وعلم، والعلم أنجحها وأربحها، فإنه أيضاً من العمل، ولكنه عمل القلب الذي هو أعز الأعضاء، وسمي العقل الذي هو أشرف الأشياء، لأنه مركب الديانة وحامل الأمانة، إذ عرضت على الأرض والجبال والسماء فأشفقن من حملها وأيَّن أن يحملها غاية الإباء» وإنما قال الإمام الغزالي ذلك لِتُتَقدم إلى تعلم الناس وإرشادهم الجهلاء وأنصار العلماء، فِيْضِلُون ويضلون، وما ينفع الإنسان أن يتعبد مائة سنة على غير هدى ولا علم ولا كتاب منير.

فالإمام النووي رحمه الله خشي الله بعمله، وعبده بعلمه، واتقاه بورعه، وأطاعه باجتناب ما حرم، وابتغى رضاه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقرب إليه بكثرة العبادة، وعمل للآخرة ورضاء الله، على قدر زهده في دنياه.

* * *
الفهرس

الموضوع

الصفحة

هذ الرجل ..................................................... 5
المقدمة ......................................................... 7
عصر النووي ................................................... 13
أسرته ومولده ونشأته ...................................... 19
رحلته إلى دمشق وتحصيله العلم ................................ 25
قدومه لدمشق .................................................. 25
بدء اشتهاله بطلب العلم ....................................... 26
سكنه بالرواحية ................................................ 27
حجه ................................................................. 28
جهد في طلب العلم ............................................... 29
شيوخ النووي .................................................... 37
شيوخه في الفقه ............................................... 37
شيوخه في الحديث ............................................. 42
شيوخه في علم الأصول .......................................... 44
شيوخه في النحو واللغة ........................................ 45

213
الموضوع

ثناءه على العلماء ........................................ 147
حليته وبعض أخباره ........................................ 148
حلية النووي وبيته ........................................ 149
مأكله ومشربه .................................................. 151
ال النووي لم يتزوج ........................................... 153
شعره وما تمثل به ........................................... 155
سفره لزيارة الشافعي ....................................... 156
مدة إقامته في دمشق ....................................... 157
مؤلفات النووي .................................................. 159
المؤلفات التي كملت وأنجزها .............................. 161
المؤلفات التي لم تكمل ....................................... 168
تلاميذه .......................................................... 172
أسطورة قراءة الجن عليه ..................................... 178
وفاته وما قيل فيه .......................................... 185
الخاتمة .......................................................... 214

الصفحة

215